

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الخامس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الخامس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون مكية

وآياتها ثمانى عشرة ومائة

مقاصدها :

بدأت هذه السورة ببشارة المؤمنين بالفلاح والخلود فى الفردوس ، إذا خشعوا فى صلاتهم وحافظوا عليها ، وأعرضوا عن اللغو وأدوا الزكاة ، وحفظوا فروجهم من الفاحشة ، وراعوا الأمانة والعهد .

وعقبت هذه البشرى ببيان منشأ الإنسان ومآله ، وأنه سبحانه خلق من فوقنا سبع سموات طباقا ، وأنه لا يغفل عن خلقه طرفة عين ، ولهذا أنزل من السحاب ماء أجراه فى مجارى فوق سطح الأرض ، وأسكن بعضه فى جوفها ، ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه ، وأنه أنشأ لنا بهذا الماء الزروع والثمار لنأكل ونتعيش منها ، وخلق لنا الأنعام وجعلها عبرة لنا ، فمن بطونها نشرب اللبن ، ومن لحومها نأكل ، وبمنافعها الكثيرة ننتفع ، وعلى الإبل منها نحمل ثقال الأحمال ، كما نحمل على السفن .

وبينت قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد جاء فيها أن هذه الأمم لم تشكر نعم ربها بتوحيده وعبادته ، بل أشركت معه غيره من مخلوقاته ، فبعث إليها رسله ليهدوهم سواء السبيل ، فكذبوهم فعاقبهم الله بعذاب الاستئصال ، ونجّى منه عباده المؤمنين .

وذكرت من أنباء المهلكين : قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان ، وقوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ، وفرعون وجنوده ، كفروا بموسى وهرون فأغرقهم فى اليم .

وعقبت قصة فرعون معهما ببيان أن الله تعالى جعل ابن مريم وأمه آية ، لأنه ولد منها دون أب ، وأنه تعالى آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح ، وأنه شرع للرسل وأممهم أن يأكلوا من الطيبات ، ويتركوا ما حرمه الله عليهم ، وأن جميع الأمم أمة وديانة واحدة هى توحيد الله ، وأصول الشرائع والأحكام ـ وإن اختلفت فى الفروع ـ

وأنه يجب على الناس جميعا أن يتقوه دون سواه ، ولكن الناس تقطعوا دينهم وابتدعوا فى دين الله ما ليس منه ، وقد توعدهم الله بالعقاب على هذا التفرق فى الدين الحق .

ثم مدحت المؤمنين الذين يخشون ربهم ولا يشركون به ، ويسبقون إلى الخيرات ، وذكرت أنه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأن هؤلاء المترفين الكافرين سيؤخذون بالعذاب فيجأرون مستغيثين ولا مغيث لهم ولا ناصر ، لأن آياته تعالى كانت تتلى عليهم فكانوا يستكبرون ولا يؤمنون .

وبينت أنه لو اتبع الحق أهواء الناس لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه تعالى بعث محمدا بالقرآن إلى قريش ، ومع أنه شرف لهم أعرضوا عنه ، فى حين أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لايسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ، إن يريد إلا الإصلاح ، وبينت أنه تعالى عاقبهم عقابا غير شديد فى الدنيا على كفرهم ، ولكنهم لم يستكينوا لربهم وما يتضرعون ، وأنه إذا فتح عليهم بابا ذا عذاب شديد فسيُبلسون ويتحيرون .

وقد ذكرتهم بنعم السمع والبصر والفؤاد ، وأنهم سوف يحشرون إليه بعد الموت ، وبدلاً من الإيمان كفروا بالبعث وقالوا : « إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

ثم ذكرت أن الله أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يُجْرِى معهم حوارا : لمن الأرض ومن فيها ؟ مَنْ رب السموات السبع ورب العرش العظم ؟ مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض وهو يُجِيرُ ولايُجَار عليه ؟ وبينت أنهم سيقولون فى كل ذلك : لله ، ولكنهم لايتذكرون ولا يتعظون ، بل يُصِرُّون على الإشراك ، وذكرت أن الموت إذا جاءهم فسيندمون على تقصيرهم ، فيطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا ، وأنه لاسبيل إلى إجابة ملتمسهم ، ثم بينت أحوال الناس يوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه بالعمل الصالح فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه بسبب العمل السيء والكفر ، فهم « فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » وبينت أنهم يعترفون ويقولون :

« رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » وأنه تعالى يجيبهم بقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ . رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوآ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ » ثم خُتِمت السورة ببيان أنه تعالى لم يخلق عباده عبثا ، وأنهم سيرجعون إليه للحساب والجزاء ، وبينت أن مَن يدعو مع الله إلها آخر فحسابه عنيف عند ربه ، وأنه تعالى هو الذى يُطْلَب منه الغفران والرحمة لمن هم أهل لهما « وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) : الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، والإفلاح الدخول فى الفلاح ، كالإبشار الدخول فى البشارة. (خَاشِعُونَ) : خاضعون متذللون. (اللَّغْوِ) : ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال (وَرَاءَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك . (الْعَادُونَ) : المبالغون فى العدوان (رَاعُونَ) : حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان بتغذيته ودفع العدو عنه ، ثم استعمل فى الحفظ مطلقاً . (الْفِرْدَوْسَ) : المراد به هنا ، أعلى درجات الجنان فى الآخرة .

التفسير

١ ، ٢ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) :

جاء فى خواتيم سورة الحج قبلها تكليف المؤمنين بالصلاة وعبادة ربهم لكى يفلحوا ويفوزوا بفضله ورحمته ، وذلك فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا

وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » فكان من المناسب أن تبدأ هذه السورة بما يؤكد فلاح المؤمنين المصلحين العابدين ، الخاشعين المتقين ، ولفظ (قدْ) يفيد تحقيق المتوقع وتثبيته ، وكان المؤمنون يتوقعون البشارة بفلاحهم ، لإيمانهم وتوحيد ربهم فأُخبروا بتحقق ما توقعوه وثباته ، إذا قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ، والمؤمنون فى اللغة : المصدقون مطلقًا ، وفى الشرع : المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وحدانية الله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبجزاء المحسنين والمسيئين فيه ، وأن يخلو تصديقهم هذا عن الرياء والنفاق والشك .

والخشوع فى الصلاة : سكون الجوارح والتذلل وحضور القلب ، وجمع الهمة لها والإعراض عما سواها ، وأن لا يجاوز البَصَرُ المُصَلَّى ، فلا يلتفت المصلى يَمْنةً ولا يسرة ، ولا يعبث بلحيته ولا بثيابه ونحو ذلك .

وقال أبو الدرداء يصف الخشوع : هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

والخشوع محله القلب ، وله السلطان على الجوارح ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح لخشوعه ، قال القرطبي : كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها ، يهاب الرحمن أن يحدَّ بصرَه إلى شيء ، وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا ـ وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأُصول بسنده إلى أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » كما أخرج بسنده عن أم رومان والدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (رآنى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أتمَيَّل فى صلاتى ، فزجرنى زجرة كدت أنصرف عن صلاتى) ثم قال : واختلف الناس فى الخشوع : أهو من فرائض الصلاة أم من فضائلها ، ورجح بعضهم الأَول ، وأُضيفت الصلاة إلى المصلين فى قوله تعالى : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » ولم تضف إلى الله الذى يصلون له ؛ لأَنهم المنتفعون بثوابها ، فهى عُدَّتهم وذخيرتهم ، وأما المولى ـ سبحانه ـ فهو غنى عنهم وعن عبادتهم .

وَلْيَعْلم المؤمن أن العمل الصالح ثمرة الإيمان الصادق ، فمن لا عمل له فإيمانه واهن ضعيف بل هو ميت لا أثر للحياة فيه ، فهو كالشجرة الجافة ، لا ورق لها ولا ثمر ، ولهذا مثل الله تعالى كلمة الإيمان الصادق بقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(١).

.. وقد جاء فى فضل هذه الآيات التى صدرت بها سورة (المؤمنون) وثواب من يعمل بها- جاء فى ذلك حديث أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال : « كان إذا نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحى ، يُسْمَعُ عند وجهه دوىٌّ كدوى النحل ، فمكثنا ساعة فسرِّى عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » ثم قال : « لقد أُنزلَتْ علىَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى ختم العشر ». وسئلت عائشة - رضى الله عنها - : كيف كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فقرأت : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى انتهت إلى : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » قالت : هكذا كان خلق رسول الله- صلى الله عليه وسلم - » أخرجه النسائى فى تفسيره(٢) وقد وعد الله المؤمنين فى هذه الآيات ميراث الفردوس والخلود فيه إذا اتصفوا بصفات سِتٍّ (أولاها) الخشوع فى الصلاة ، وقد سبق الحديث عنه ، وفيما يلى : الحديث عن باقى الصفات :

٣ ، ٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) :

تضمنت هاتان الآيتان صفتين أُخريين للمؤمنين المفلحين بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة ، الصفة الأُولى منهما : إعراضهم عن اللغو وبعدهم عنه ، وفسره ابن عباس بالباطل ، وقال الآلوسى : وقد يُسَمى كل كلام قبيح : لغوًا ، وعمَّم بعضهم اللغو فجعله يشمل كل مالا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وشاع فى كل كلام يقوله صاحبه لا عن روية وفكر ، فهو

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٢) انظره والحديث الذى قبله فى تفسير ابن كثير لأول (المؤمنون) .

يجرى مجرى اللَّغاء ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، والصفة الثانية منهما أداؤهم الزكاة ، والمراد من الزكاة هنا : زكاة أموالهم ، ولا ينافى هذا كون السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، لأن التى فرضت بالمدينة هى ذات النُّصُب والمقادير الخاصة ، وهذه غير التى فرضها الله بمكة ، فقد كانت غير مشروطة بمقدار ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام — وهى مكية — : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[1] ومن العلماء من فسر الزكاة هنا بزكاة النفس مراعاة لمكية الآية ، كقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ».

والمعنى : والذين هم لأجل زكاة نفوسهم يفعلون ما يفعلون من الطاعات .

٥ ، ٦ — (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان صفة رابعة للمؤمنين الذين يفوزون بجنة الفردوس ، وهى حفظهم لفروجهم من الزنى ، والفَرْج يشمل سوءة الرجل والمرأة ، فالمراد به عضو التناسل من كل منهما ، ولفظ (عَلَى) فى قوله : (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ) بمعنى : (مِن) كما قاله الفراءُ وغيره ، أى : حافظون لفروجهم إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، والأزواج جمع زوج ، وهو يطلق على كل من الرجل والمرأة المتزوجين ، فكلاهما زَاوَجَ الآخر أى ثاناه ، بأن جعله مع نفسه اثنين ، والمراد مما ملكت أيمانهم السُّرِّيات[2] وهُنَّ (الإماءُ) المأخوذات فى غنائم الحرب ، دون المختطفات من أهلهن ، فلا يحل بيعهن ولا شراؤهن ، ولا الاستمتاع بهن عن طريق ملك اليمين ، فهن حرائر مغتصبات فلا سبيل إلى تملكهن ، ومن اشتراهن وهو يعلم بحالهن فشراؤه غير صحيح ، والاستمتاع بهن زِنى .

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا لوم ولا إثم على المؤمنين فى غشيان زوجاتهم وإمائهم ، ولا على المؤمنات فى مباشرة أزواجهن لهن ، أما عبيدهن فلا حَقَّ لهم فى الاستمتاع بهن بالإجماع[3] ، لأنه مملوك لها وليس مالكًا فهى قوَّامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمته فإنه مالك لها وقَوَّام عليها .

---

(١) الآية : ١٤١

(٢) جمع سرية — بضم السين — منسوبة إلى السر بكسرها على غير قياس ، كما قالوا فى النسبة إلى الدهر دهرى ، وإلى الأرض السهلة : سهلى — بضم الأول فى كليهما — انظر المادة فى القاموس . (٣) وإن كان ظاهر الآية يخالفه.

روى معمر عن قتادة قال : تسرَّرَت امرأة غلامها[١] ، فذُكِرَ ذلك لعُمَر فسألها : ماحملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لى بملك يمينى ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر فى رَجْمِهَا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم ﷺ فقالوا : تَأَوَّلَتْ كتاب الله على غير تأْويله فلا رجم عليها ، فقال عمر : لاجرم. والله لَا أُحِلُّكِ لحُرٍّ بعده أبدًا ، عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرتُ عمر بن عبد العزيز ، حين جاءته امرأة بغلام لها وضِئٍ ، فقالت : إنى استسْرَرْتُه فمنعنى بنو عمى من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فانْهَ عنى بنى عمى ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم ، فقال : أما والله لولَا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يَخرج به إلى غير بلدها.[٢]

٧ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى : فمن طلب سوى الزوجات والإماء لقضاء شهوته ، فَأُولَٰئِكَ هم المجاوزون الحد فى الإثم والعدوان .

وبهذه الآية حرم إتيان الذكور والبهائم ، كما حرم نكاح المتعة ، وهو نكاح المرأة إلى أجل بمقابل ، وكان مباحًا فى الجاهلية ، فلما نزلت هذه الآية حرمته ، وهذا يقتضى أن تحريمها كان قبل الهجرة لأَنَّ السورة مكية ، لكن ورد تحريمها بعد الهجرة ثلاث مرات ، (إحداها) يوم خيبر[٣] . (وثانيتها) يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، وكان قد أَحلها يومئذ ثلاثة أيام ثم حرمها[٤] . (وثالثتها) كانت فى حجة الوداع وكان التحريم فيها أبديًّا أخرجه أبو داود[٥] .

---

(١) أى جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى : الجماع .
(٢) انظر القرطبى فيها وفى التى قبلها ج ١٢ ص ١٠٧ طبع دار الكتب .
(٣) وقد اتفقت عليه روايتا البخارى ومسلم .
(٤) رواه الإمام مسلم .
(٥) انظره فى شرح النووى لمسلم .

ويرجع تحليلها فى بعض الغزوات ، إلى الترخيص لهم بما ألفوه قبل الإسلام فى سفرهم وحروبهم ، تأليفًا لهم وتدرجًا معهم فى التشريع ، فلما تشبعت نفوسهم بدينهم ، حرمه الله إلى الأبد .

وقد علق الإمام النووى على الحديث الأول من أحاديث المتعة عند مسلم- علّق عليه - بكلام نفيس ، ثم قال : قال القاضى[1] : واتفق العلماءُ على أن هذه المتعة كانت نكاحًا إلى أجل لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلَّا الروافض ، وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول بإباحتها ، وروى عنه : أنه رجع عنه .

قال[2] : وأجمعوا على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن ، حكم ببطلانه ، سواءٌ كان قبل الدخول أو بعده إلى آخر ما قال. فارجع إن شئت إلى باب نكاح المتعة فى كتاب أحكام النكاح تعليق الإمام النووى على الإمام مسلم ، وقد أسهب الآلوسى فى الكتابة على هذه الآية ، فمن شاء المزيد فليرجع إليه .

ومما ذكره فيها : أن الأئمة اختلفوا فى استمناء الرجل بيده ، وأن جمهور الأئمة على تحريمه ، لدخوله تحت عموم قوله تعالى : « فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » وذكر أن الإمام أحمد يجيزه ، لأن المنى فضلة فى البدن فجاز إخراجها عند الحاجة ، كالفصد والحجامة . وعزز بعض العلماء رأى الجمهور بحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال : « ناكح اليد ملعون » ، كما عززه بقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ » وهذا الاستمناءُ يقرب صاحبه من الزنى ، فلهذا يكون منهيًّا عنه ومحرمًا .

٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

هذه هى الصفة الخامسة للمؤمنين الموعودين بالفوز وميراث الفردوس ، وهى رعايتهم لأماناتهم وعهدهم ، والمراد بأماناتهم : ما ائتُمِنُوا عليه من جهة الله وهى التكاليف الشرعية التى كلف الله عباده بها ، كالصلاة والصوم والزكاة وترك الخمر والميسر ، أو من جهة الناس وهى ودائعهم من الأموال والأسرار .

---

(١) يعنى القاضى عياضا .   (٢) أى : قال القاضى عياض .

والمراد بعهدهم : ما عاهدوا الله عليه بالأيمان والنذور ، وما عاهدوا الناس عليه بالعقود والوعود ، وجمعت الأمانة فى الآية دون العهد ، لكثرة الأمانات من جهة الله ومن جهة الناس ، وقد أثنى الله عليهم ، بأنهم مراعون للأمانات والعهود بأنواعها ، حافظون لها قائمون بحقوقها .

٩ـ (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

هذه هي الصفة السادسة للمؤمنين المفلحين ، والمراد من الصلوات : الصلوات المفروضة ، كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن عكرمة ، والمراد من المحافظة عليها :أداؤها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ، والتعبير بقوله: (يُحَافِظُونَ) بدل (محافظون) لما فى الصلاة من التجدد والتكرار الذى توافقه صيغة الفعل المضارع .

وقد ذكرت الصلاة فى أوصاف المؤمنين مرتين ولا تكرار فيها ، فإن ذكرها أولًا للحث على الخشوع فيها لأهميته ، وذكرها أخيرًا للمحافظة عليها فى جميع مطالبها . وكلاهما يدل على فضل الصلاة وعظيم منزلتها عند الله تعالى ، ولهذا فرضها الله فى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، وفرض سواها وَحْيًا على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الأرض .

١٠ ــ (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) .

أى : أولئكَ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة هم الجديرون بأن يسموا وُرَّاثًا دون من عداهم ممن يرثون نفائس الأموال والحلى وغيرها من متاع الدنيا ، فإنه عرض زائل ، وما عند الله خيرٌ وَأَبْقَى ، ثم شرح ميراثهم فقال :

١١ ــ (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

والفردوس فى اللغة ــ كما قال صاحب القاموس ــ : هو البستان يَجْمَعُ كل مايكون فى البساتين ، وقد يؤنث .

وهو فى الآخرة أعلى درجات الجنان ، ففى الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » أخرجه البخارى ومسلم .

وعبر عن استحقاقهم الفردوس بالميراث لما روى عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ما منكم من أحد إلّا وله منزلان ، منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) » أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة ، وابن جرير عن أبى معاوية بإسناده إليه .

وقيل : الإرث مستعار للاستحقاق ، لأنه أقوى أسباب الملك .

المعنى الاجمالى للآيات السابقة :

١ ـ قد فاز المؤمنون بما أمّلوه فى مولاهم ، فقد قضى بنيلهم ما يطلبون ، ونجاتهم مما يرهبون ويخافون ، جزاءَ إيمانهم واتصافهم بالصفات الكريمة التالية :

٢ ـ الذين هم فى صلاتهم متذللون خاضعون ، جوارحهم ساكنة ، وقلوبهم حاضرة ، وعقولهم مجتمعة غير مشتتة ، يخلصون المقال ، ويعظمون المقام ، فهم ماثلون أمام مالك الملكوت ، ورب العزة والجبروت .

٣ ـ والذين هم فى سلوكهم مع الناس ، بعيدون عن ساقط الكلام وباطله ، ورديء الفعل وعابثه ، فإذا نطقوا فبخير ، وإذا فعلوا فبرويّة وفكر .

٤ ـ والذين هم لزكاة أموالهم مؤدون ، ومن أجل طهارة نفوسهم يفعلون من الطاعات ما يفعلون .

٥ ، ٦ ـ والذين هم لسوءاتهم ومواضع العفة منهم حافظون إلّا من زوجاتهم أو جواريهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهن ، فهن حلال لهم .

٧ ـ فمن طلب غير الزوجات والسرارى لقضاء شهوته سفاحًا ، فأُولٰئِكَ هُمُ المعتدون ولحدود الله مجاوزون ، ولعقابه فى الدنيا والآخرة مستحقون .

٨ ـ والذين هم لما ائتمنوا عليه من التكاليف الشرعية وودائع الناس وأسرارهم حافظون لها ، مؤدون حقوقها ، قائمون بواجباتها .

٩ ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ، فى أوقاتها يؤدون ، وبأركانها وشروطها يلتزمون .

١٠ ، ١١ – أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بأن يوصفوا بالوارثين ، فإنهم يرثون فى الآخرة جنة الفردوس أعلى الجنان ، ومن فوقها عرش الرحمن هم فيها خالدون ، لا يَخْرُجون ولا يُخْرَجون ، أما الوارثون فى الدنيا للأموال والنفائس ، والرباع والقصور ، فهم وما ورثوه زائلون وعنه مسئولون .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) السلالة : ما سُلَّ من الشىء واستخرج منه ، أى : مِنْ مُستَخْرج ومستخلص من الطين . (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً) : صيرناه نطفة ، أى : منيًا ، وهى مأخوذة من النطف : وهو التقاطر ، وقال الراغب: النطفة : الماءُ الصافى ، ويعبر به عن ماء الرجل.ا هـ . وكان عليه أن يقول : عن ماء الرجل والمرأة ، لأن الجنين يتخلق من مائهما .

(مَكِينٍ) : متمكن ثابت . (عَلَقَةً) : هى ما يعلق بغيره ، وسيأتى بيان المراد منها فى الشرح . (مُضْغَةً) أى : قطعة لحم بقدر ما يمضغ .

التفسير

١٢ – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة صفات السعداء التى استحقوا بها الجنة ، وجاءت هذه الآية والآيات التالية لها لبيان ما خلقوا منه هم وغيرهم ، وما ينتهون إليه ، حثًا لهم على استدامة

ما هم فيه من الصفات الكريمة ، وتذكيرًا لغيرهم بمبدئهم ومنتهاهم ، ليعملوا لآخرتهم ، ويتقوا سوء المصير .

والمراد من الإنسان فى الآية : الجنس ، فكل أفراد هذا الجنس خلقهم الله من خلاصة مستخرجة من الطين ، كما جاء فى النص الكريم ، وذلك باعتبار أصلهم الأول آدم ـ عليه السلام ـ فهم مخلوقون من الطين تبعًا لخلقه منه ، أو باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها خلاصة مستلة ومأخوذة من أغذية ناشئة ونابتة من الطين .

١٣ ـ (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ) :

ثم حولنا الإنسان وصيرناه نطفة ومنيًّا فى قرار مكين بعد استلاله من طين ، ولفظ (ثُمَّ) هنا إما : للترتيب فى الخلق والتراخى فى الزمن ، أو للترتيب والبعد فى المنزلة والرتبة ، فإن تحويله من خلاصة من طين ، إلى منىٍّ مشتمل على حيوانات منوية لا حصر لها فى ماء الرجل وعلى بويضة وحيدة فى ماء المرأة ، فيه انتقال من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى ومنزلة أبعد وأسمى ، وهذا المعنى هو المناسب لما ختمت به الآيات ، وهو قوله تعالى : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ومثل ذلك يقال فى الآية التالية .

والمراد من القرار المكين : الرحم ، فهو مقر متمكن فى موضعه ، وحرز حريز للنطفة وما يطرأ عليها من التطورات ، فلا يخاف عليها فيه من حركة الأم وتنقلاتها وعملها حتى تضع حملها بسلام .

١٤ ـ (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

تقدم الكلام مستوفى على مثل ما جاء فى هذه الآية فى صدر سورة الحج ، حيث بينّا هناك كيف تتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ، وأطوار تكوين الجنين فى أشهر الحمل وأوزانه ، وأن الحياة موجودة فيه منذ تكوين الخلية الأولى بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى ، وأن المقصود من نفخ الروح فيه فى نهاية طور المضغة هو إعطاء الجنين دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم تصويره المبدئى ، ولهذا لا نرى داعيًا

لإعادة الكلام هنا تفصيلًا فيها ، فمن شاء فليرجع إلى ما قلناه فى تفسير قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ . . . »[١] .

والمعنى : ثم صيرنا النطفة البيضاء خلايا عالقة بجدار الرحم أجرينا عليها التحويل من حال إلى حال فصيرناها بهذا التحويل والتصوير مضغة – أى : قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ ، فيها معالم الانسان الأولية ، فصيرنا بعض هذه المضغة عظامًا متطورة ممتدة فى ثناياها أثناء تخليقها وتصويرها ، فكسونا تلك العظام لحمًا وأحطناها به ، ليتم للجنين تلك الصورة البديعة ، ثم حولناه بعد تمام التكوين والتصوير وأنشأناه مخلوقًا آخر مباينًا لخلقه الأول ، فقد أصبح إنسانًا سويًا جميلًا وسيمًا ، بعد أن كان منيًا ثم علقة ثم مضغة .

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

أى : فتعالى الله أحسن الخالقين خلقًا ، وتقدس أعظم المقدرين المبدعين تقديرًا وإبداعًا حيث أنشأ هذا الجمال الإنسانى من تراب ثم من نطفة ثم من علقة فمضغة ، وعُدِل عن أسلوب التكلم فى نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا » فأسند الفعل هنا إلى لفظ الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وللإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة ، إنما هو من أحكام الألوهية وآثارها ، وللإيذان بأن حق من سمع ما فُصِّل من آثار قدرته تعالى أو تَدَبَّره أن يقول : « تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى .

وَالْخَلْق معناه فى اللغة : التقدير ، وهو لهذا يصح أن يطلق على غيره تعالى ، كما فى قوله سبحانه : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر من الطين تمثالًا وتصوره كهيئة الطير ، ولهذا عبر هنا بصيغة أفعل التفضيل (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

١٥ ، ١٦ – (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) :

ثم إنكم يا بنى الإنسان بعد ذلك الخلق العجيب لمنتهون إلى الموت لا محالة ، ثم إنكم يوم القيامة تقومون من قبوركم وتبعثون منها إلى ساحة الحساب على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » : ومن كان مصيره إلى الحساب والجزاء ولابد ، فعليه أن يَتَّقِىَ سوءَ الحساب .

---

(١) سورة الحج : الآية الخامسة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَبْعَ طَرَآئِقَ) : سبع سماوات طباقًا بعضها فوق بعض ، وهى جمع طريقة ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة – انظر القرطبى . (مَآءً بِقَدَرٍ) أى : بتقدير لائق يجلب المصالح ويدفع المضار . (جنَّاتٍ) : بساتين . (تَنبُتُ بِالدُّهْنِ) : تنبت ملتبسة بالدهن ومصاحبة له فى تكوينها . (وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) : وما يصبغ به الخبز للآكلين أى : يغمس فيه .

التفسير

١٧ – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) :

بين الله فى الآيات السابقة خلق الإنسان ومصيره الذى ينتهى إليه ، وبين فى هذه الآية وما بعدها خلق ما هو بحاجة إليه فى حياته الأُولى ، استكمالًا لنعمته عليه .

وفى تقديم بيان خلق الإنسان على خلق هذه الكونيات العظيمة ، إيذان بعظم خلقه مع صغر حجمه ، ففيه انطوى العالم الأكبر ، كما قال الشاعر :

أَتزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِير وَفِيكَ انطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

وفى تلك الآيات دلالة على إمكان بعثهم الموعود به قبلها فى قوله سبحانه : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » فإن من قدر على خلق السماوات ، وإخراج الشجر والنبات من التراب ،

فهو على بعثهم قدير ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ » والطرائق : جمع طريقة ، وتطلق على الطبقة فوق الأخرى ، يقال : طارقت الشىء : جعلت بعضه فوق بعض ، كما تطلق على الطريق المعروف ، وعلى الأسلوب والهيئة .

وأطلقت الطرائق على السموات السبع إما لكون بعضها فوق بعض ، أو لأنها طرق الملائكة فى هبوطهم وعروجهم ، أو لأن لكل سماء طريقة وأسلوبا فى خلقها ونظامها وهيئتها .

ومعنى الآية : ولقد أنشأنا فوقكم يا بنى الإنسان سبع سماوات طباقا ، يسلكها الملائكة فى أعمالهم التى كلفهم الله بها ، ولكل سماء هيئة ونظام يتفق مع ما خلقت لأجله ، وما كنا عن جميع مخلوقاتنا ساهين مهملين ، فكل شىء خلقناه فيها بقدر ، ودبرناه بحكمة ، وهو مشمول برعايتنا وحفظنا ، ومحوط بعلمنا « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[1] لا تحجب سماءٌ عن علمه سماءً أخرى ، ولا أرضٌ أرضًا غيرها ، ولا جبل إلا هو يعلم سهوله ووديانه وهضابه وكثبانه ، ولاريف إلا وهو يعلم نباته وأشجاره ، وإنسانه وحيوانه « وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[2] ولا بحر إلا وهو يعلم مياهه وركبانه ، وأسماكه وحيتانه ، فهو « اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ »[3] .

١٨ - (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) : كل ما علاك يطلق عليه فى اللغة : سماءٌ ، والمراد بالسماء هنا إمَّا السحاب ، فمنه ينزل المطر ، وإما السماءُ المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر منها إنزاله بسببها ، فإن المطر أصله أبخرة صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

---

(١) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٩

(٣) سورة البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومعنى الآية : وأنزلنا من السحاب ماء بمقدار مايكفى مخلوقاتنا فى مصالحهم وحاجاتهم ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلا فلا يفى بالإنسان والحيوان والزروع والثمار ، فأسكناه فى الأرض وأقررناه فيها ، حيث أجريناه فى الأنهار ، وجعلنا الأرض تتشرب بعضه ، ليستقر فى جوفها ، ويخزن تحت طبقاتها ، لينتفع به الناس عند الحاجة إليه بحفر الآبار فيها ونبع العيون منها ، وإنا على ذهاب بالماء الذى أنزلناه لقادرون ، بأن نجعل الأرض تبتلعه فيغور فيها إلى أماكن بعيدة لا تقدرون على استنباطه منها ، كما قال سبحانه فى آخر سورة الملك : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ » .

ويصح أن يكون المعنى : وإنا على عدم انتفاعكم بالماء لقادرون ، بأن نحبس المطر عنكم أو نحول عذبه الفرات إلى ملح أجاج ، أو نجفف أنهاركم وآباركم ، ولكنا بلطفنا ورحمتنا نمدكم بالماء العذب من آن لآخر ، ونحفظه لكم لتنتفعوا به عند حاجتكم .

١٩ - (فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

فأوجدنا لكم بسبب هذا الماء الذى أسكناه فى الأرض - أوجدنا لكم - بساتين ذات بهجة من نخيل وأعناب ، لكم فى تلك البساتين فواكه كثيرة غير النخيل والأعناب ، تتفكهون بها وتتنعمون بحلاوتها وجمالها ولذيذ مذاقها ، ومن هذه البساتين تأكلون وتتغذون بزروعها وثمارها التى تجمع بين التفكه والتغذى .

ويصح أن يكون المراد من الأكل من تلك الجنات التعيش والارتزاق منها ، ببيع ما زاد على طعامهم وفاكهتهم ، ومنه قولهم : فلان يأكل من حرفته ، أى : يتعيش منها .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله : « لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » على النخيل والأعناب ، فثمراتها جامعة بين الفاكهة والغذاء .

٢٠ - (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) :

الطور فى اللغة : اسم لكل جبل ، وطور سيناء : هو الجبل الذى كلم الله موسى - عليه السلام - عنده ، وهو واقع فى إقليم سيناء التابع لمصر .

وجمهور العرب والقراء على فتح السين مع مد الهمزة ، وقرىء بكسرها مع المد أيضاً - وهو لغة بنى كنانة ، وفيه لغات وقراءات أخرى : كَطُورِ سينين ، ونكتفى بما ذكرنا ، والمراد بالشجرة التى تنبت منه الدهن : شجرة الزيتون ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار التى تنبت هناك لما فيها من المنافع الجليلة ، ولشهرة طور سيناء بإنباتها أكثر من اشتهاره بإنبات سواها عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وتخصيصها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سواه لتعظيمها ، وقيل : لأنه هو المنشأُ الأَصلى لها بعد الطوفان ، والله أعلم بذلك القول .

والمراد من نباتها بالدهن ، نباتها ملتبسة به ، حيث خلقها الله صالحة لإخراج ثمرها مشتملا على نسبة عالية من الزيت ، والمراد من كونه صبغا للآكلين ، أنه يغمس فيه الخبز ويصبغ به عند تناوله ، كما كانوا يفعلون عندما نزل القرآن عليهم .

ومعنى الآية : وأنشأْنا لكم شجرة طيبة مما أنزلناه من السماء من ماء ، وهذه الشجرة تخرج من أرض مباركة قريبة منكم يجلب لكم ثمارها ، هى سفح طور سيناء الذى كلم الله تعالى موسى عنده ، وتلك الشجرة تنبت وفيها خاصيةُ إخراج ثمرٍ يجمع بين نعمتين : (إحداهما) نعمة الدهن ، وهو الزيت الذى تستعملونه فى سراجكم وسائر أُموركم التى تحتاج إليه . (وثانيتهما) أنه أُدُمٌ تصبغون به الخبز عندما يتناوله الآكلون منكم .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الأَنْعَامِ) : تطلق على الإبل والبقر والغنم ، أو كما قال صاحب المختار : هى المال الراعية ، وأكثر ما يطلق : على الإبل . ا هـ ، وسيأْتى فى التفسير مزيد بيان عنها .

(الْفُلْكِ) : الفلك السُّفُن ، وقد يطلق على الواحدة ، وقد يُذَكَّر حينئذ ، كما قال تعالى : « فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » وقد يؤنث كما فى قوله تعالى : « وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » قال صاحب المختار : كأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فتذكر ، وإلى السفينة فتؤنث . اهـ وهى تحتمل الإفراد والجمع ، ومن إطلاقها على الجمع قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »[1] . ومن إطلاقها على المفرد قوله تعالى : « فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »[2]

التفسير

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة نعمه وآياته فى خلق الإنسان ، وإنزال الماء من السحاب ، وإنبات الحدائق والبساتين وأنواع النبات بما أنزله لهم من الماء ، وخزنه لهم منه فى جوف الأرض ، وجاءت هذه الآية لتبين آياته ونعمه فى الأنعام .

والأنعام المذكورة هنا ، إما أن يراد بها أصنافها وهى الإبل والبقر والغنم ، وإما أن يراد بها الإبل خاصة لقوله تعالى فى الآية التالية : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وإرادة العموم هنا أولى ؛ لأن العبرة والمنافع فيها ليست قاصرة على الإبل .

والمعنى : وإن لكم - أيها الناس - لعظة عظيمة فى أصناف الأنعام ، نسقيكم مما فى بطون إناثها من بين فرْثٍ ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ، ولكم فيها منافع كثيرة فى أوبارها وأصوافها وأشعارها وفى عظامها حيث تطحن وتكون ضمن طعام الداجنة ، وفى غِرَائها الذى يلصق به ، ومن لحومها تأكلون ، ومنها تتعيشون وترتزقون ، حيث تتجرون فى أنواعها وأجزائها وفضلاتها ، وقد تقدم الكلام وافيًا على مثل تلك الآية فى سورة النحل[3] ، فارجع إليها إن شئت .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ٢٢

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١١٩

(٣) الآية رقم ٦٦ منها .

٢٢ - (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

الضمير فى (عَلَيْهَا) يرجع إلى الأنعام ، ونسبة الحمل فيها إلى جميعها - مع أن التى تحمل هى الإبل - بنسبة ما لبعضها إلى كلها مجازاً[1] وقرْن الإبل بالفلك فى الحمل عليها لأنها سفن البر كما أن الفلك سفن البحر ، وفى ذلك مافيه من المبالغة فى تحملها ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر ذو الرمة فى وصف ناقته :

* سفينة بَرٍّ تحْت خدِّى زِمَامُها *

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) : يريد أن يتعالى عليكم ويَفْضُلَكُمْ بادعاء الرسالة .

(بِهِ جِنَّةٌ) : به جنون ، أو جنّ يخيلون له فيقول ما يقول . (فَتَرَبَّصُوا) : فانتظروا .

التفسـير

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

(١) ويصح أن يكون فى الكلام استخدام ، وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، كمايقول علماء البلاغة ، وعليه يكون الضمير عائدا إلى الأنعام بمعنى الإبل خاصة ، بعد إرادة العموم منها فيما تقدم .

شروع فى بيان ما جناه الناس على أنفسهم من ترك التبصر والاعتبار والادّكار بنِعَم الله عليهم ، أو بعقاب الله لهم على كفرهم برسله الذين يذكرونهم ويوجهونهم إلى معرفة ربهم بآياته ونعمه .

وقدم الله قصة نوح مع قومه ، لأنه الأب الثانى للبشرية بعد آدم ، ولأنه مكث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عامًا يدعوهم ، فلما لم يؤمنوا قطع الله دابرهم بالطوفان ، فلهذا كانت قصته جديرة بتقديمها ، وإيرادها عقب قوله تعالى : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » للصلة القوية بين نوح والسفن فهو أول من صنعها من البشر .

والمعنى : ولقد بعثنا نوحًا رسولًا منا إلى قومه ، ومعه آيات ومعجزات تؤيد رسالته فقال مستميلًا لهم إلى الحق : يا قومى اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدًا فإنه ليس لكم إله سواه ، أتشاهدون ذلك فى آياته فلا تتقون عقابه وأنتم به كافرون .

٢٤ ـ (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ) :

يطلق لفظ الملإ على السادة لأنهم يملئون العين ، كما يطلق على الجماعة مطلقًا[1] ، والمراد هنا المعنى الأول ، ووصْفُهم بالذين كفروا من قومه ليس لتمييزهم عن فريق آخر منهم بل لذمِّهم بالكفر مع أنهم من قومه ، إذ لم يؤمن أحد من أشرافهم ، حسبما يُفْصح عنه قولهم له : « مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » .

والمعنى : فقال سادتهم الكافرون لِعوامِّهم تنفيرًا لهم من اتباعه : ما هذا الذى يدَّعى الرسالة عن الله إلّا بشر مماثل لكم فى البشرية والأوصاف المختلفة ، يريد بدعواه الرسالة أن يسودكم ويتقدم عليكم ، ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسولًا لأرسله وأنزله من الملائكة ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه من عبادة إله واحد ـ ما سمعنا بهذا ـ فى آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدقه .

---

(١) انظر القاموس .

وهم بهذا الذى قالوه ، يرفضون رسالة البشر ، ويرضون بربوبية الحجر ، فلا عجب أن يمضوا فى التنفير منه قائلين :

٢٥ ـ (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : ما نوح إلَّا رجلٌ به جنون ، أو يغشاه جن يلبسون الأمر عليه ، ويخيلون له فيقول ما يقول ، فانتظروا به واصبروا لعله يفيق مما أصابه فلا يعود لما يقوله ، وهم بهذا ينقضون ما وصفوه به أولًا من أنه رجل يريد الرياسة والفضل عليهم بدعواه الرسالة فيهم ، وهذا يقتضى اعترافهم ضمنًا بأنه رجل عاقل وسياسى ماهر ، فاتهامهم له بالجنون بعد ذلك يعتبر تخبطًا منهم فى المقال عنه ، وإيغالًا فى التنفير منه بدون وجه حق .

٢٦ ـ (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

قال نوح لربه بعد أن يئس من إيمانهم ، حينما أخبره بقوله : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قال نوح بعد يأسه : رب انصرنى على قومى وأهلكهم بسبب تكذيبهم لى ، انتقامًا منهم على تماديهم فى الضلال ، وإصرارهم على الكفر بعد تلك الدهور الطوال .

(فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(الْفُلْكَ) : السفينة . (بِأَعْيُنِنَا) :المراد من أعينه تعالى ؛ مزيد حفظه ورعايته فإنه منزه عن مشابهة الحوادث . (وَفَارَ التَّنُّور) : التنور الكانون يخبز فيه ، ويطلق عليه الْفُرْنُ أيضًا ، والمراد من فورانه : نبع الماء منه ، ويطلق التنور أيضًا على كل مَفْجَرِ ماء[١] .

(فَاسْلُكْ فِيهَا) : فأدخلْ فيها . (مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى من كل صنف فردين متزاوجين ليكونا بذلك التزاوج اثنين . (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ) : صَعِدت .

(مُنزَلًا مُّبَارَكًا) : مكانًا كثير الخير .

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)[٢] : وإن كنا لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم .

التفسير

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . .) الآية .

أى : أجبنا دعاء نوح على قومه ، فأوحينا إليه على لسان جبريل ، قائلين له : اصنع السفينة التى سوف نُنجِّيك مع المؤمنين بركوبها ، اصنعها تحت رعايتنا وحفظنا وإرشادنا لك بالوحى عن طريقة صنعها حتى تسلم من الخطإ ومن عدوان قومك عليك وأنت تصنعها .

(فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) :

فإذا جاء موعد أمرنا بشأنهم ، وحان وقت عقابهم على كفرهم ، بعد تمام صنع السفينة ، وفار الماءُ من الفرن ، أمارة لك على مجىء أمرنا وعقابنا لقومك ، فأدخل فى السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنيين ذكرًا وأنثى ، وأدخل فيها نساءك وأولادك فهم أهلك ، إلَّا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا أزلًا بإهلاكه منهم ، وهم ابنك وزوجتكِ الكافران ، ولا تسألنى نجاة أحد من أولئك الكافرين ، ولا تشفع فى هؤلاء الظالمين ، فإنهم مُغرقون بالطوفان جميعًا جزاء كفرهم وظلمهم .

ويصح أن يكون المراد من أهله : المؤمنون من أمته ،واستثناءُ من سبق عليه القول منهم يُعَبَّرُ عنه فنِّيًا بالاستثناء المنقطع ، لأن من سبق عليه القول بالإهلاك ليس من المؤمنين .

(١) انظر المادة فى القاموس .

(٢) (إن) هنا مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام بعدها للفرق بينها وبين النافية .

والأول هو الظاهر ، وأما حمله من آمن معه فى السفينة من غير أهله فإنه وإن لم يذكر فى هذه الآية ، فقد صُرِّح به فى سورة هود فى قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ[1] » والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، فما ترك ذكره فى آية يعرف أنه مراد فيها من آية أخرى ذكر فيها .

وتأخير الأمر بحمل أهله فى السفينة عن الأمر بحمل الأزواج وإدخالهم السفينة ، لأن إدخال هذه الأزواج يحتاج إلى معاونة أهله قبل أن يصعدوا إلى السفينة ، ولأن موضوع إدخال الأهل يتصل به استثناءُ من استثنى منهم وغيره ، فتقديم الأمر بإدخالهم على إدخال الأزواج يخل بتجاوب النظم الكريم .

٢٨ - (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فإذا ركبت السفينة وعلوتها أنت ومن معك من المؤمنين ونجوتم بذلك من ظلم قومكم الظالمين ، ومن عقابهم بالطوفان على ظلمهم وكفرهم - إذا حدث ذلك - فقل : الحمد لله الذى نجانا بفضله من ظلم الظالمين وعاقبته .

وتوجيه الأمر إلى نوح بالحمد على النجاة من الظالمين ، دون إشراك من نجا معه من المؤمنين فى ذلك ، لأنه إمامهم ،فأمره بحمد الله أمر لهم بمثله ، ولأنه هو الذى دعا ربه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم إياه ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن معه من المؤمنين ، وأغرق مكذبيه بالطوفان ، فلهذا طلب منه ربه أن يحمده على إجابة دعائه فى قومه المكذبين ، وتكريمه والمؤمنين بالنجاة من ظلمهم .

٢٩ - (وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) :

أى : وقل يارب أنزلنى من السفينة مكانا ومنزلًا كثيرالخيرات ولمن معى من المؤمنين بعد انتهاء الطوفان ، وخراب الدنيا ، لكى نستطيع العيش فيه نحن وذرياتنا ، وأنت يارب خير من ينزل الضيفان ، ويكرم المحتاجين واللاجئين .

---

(١) سورة هود ، الآية رقم : ٤٠

٣٠ـ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) :

إنَّ فى مافعله الله بنوح وقومه لعلامات واضحات على نجاة المتقين ، وسوء مصير الظالمين ، ولو بعد حين ، يهتدى بها أصحاب البصائر المستنيرة ويعتبر بها أولو العقول الوضيئة ، وإن الحال والشأن فى قصتهم ، هو أننا كنا مبتلين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شنيع .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾)

المفــردات :

(قَرْنًا آخَرِينَ) : أى ذوى قرن آخرين ، وهم عاد ، وقيل : هم ثمود ، والأول أصح .

(الْمَلأُ) : الأشراف . (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) : أى نعمناهم ووسعْنا عليهم .

التفسير

٣١ـ (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

بعد أن حكى الله قصة قوم نوح وعاقبتهم لما كفروا بربهم وعصوا رسوله ، جاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية قصة قوم آخرين جاءوا بعدهم ، ففعلوا فعلهم ، فأهلكوا جميعًا عقابا لهم .

وهؤلاء القوم هم عاد قوم هود ، فإنهم هم الذين خلفوا قوم نوح وجاءوا بعدهم ، كما عرف من الترتيب القرآنى لقصص الأمم وأنبيائهم ، فقد جاءت قصتهم بعد قوم نوح فى سورة الأعراف وهود وغيرهما ، ولهذا قال لهم رسولهم هود : « وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » واختار هذا الرأى ابن عباس ، وإليه ذهب أكثر المفسرين .

وقيل : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة ، وهؤلاء الذين جاءوا هنا بعد نوح أهلكوا بالصيحة ، كما سيجىء بآخر قصتهم فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[1] .

وقد يكونون أمة أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمها ولا باسم رسولها .

والمعنى : ثم أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان لكفرهم ـ أنشأنا ـ قوما آخرين فى زمان غير زمانهم .

٣٢ ـ (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ[2] اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

فأرسلنا فى أهل هذا القرن رسولاً من بينهم ، قائلين لهم على لسانه : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدا فى العبادة ، فإنه ليس لكم من إله سواه حتى تشركوه معه فى العبادة ، أتعبدون معه غيره ، فلا تتقون عقابه ، ولا تخشون عذابه .

٣٣ ـ (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا[3] وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) :

وقال أشراف قومه الذين بالغوا فى كفرهم وتكذيبهم بلقاء الآخرة ونعّمناهم ووسّعنا عليهم فى الحياة الدنيا ـ قالوا لمن دونهم من قومهم مُنَفِّرين من اتباعه ـ : ما هذا الذى يدعى الرسالة فيكم إلّا بشر مماثل لكم ، فهو يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون فليست له ميزة فيكم ، حتى يدعى أنه رسول الله إليكم ، ثم بالغوا فى التنفير من اتباعه فقالوا :

---

(١) واختار هذا الرأى أبو سليمان الدمشقى والطبرى .

(٢) (أن) هنا بمعنى أى ، لوقوعها بعد الإرسال الذى يتضمن معنى القول .

(٣) من قومه بيان للملأ ، والذين كفروا صفة للملأ ، جىء بها ذما لهم ، وتنبيها على غلوهم فى الكفر .

٣٤ـ (وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ)[١] :

ونقسم لئن أطعتم بشرًا مماثلًا لكم فى بشريتكم ، واتبعتموه فيما يدعوكم إليه ، إنكم حينئذ لخاسرون باتباعه ، ثم استأنفوا مقرِّرين ما زعموه فقالوا مستنكرين مستبعدين :

٣٥ـ (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم[٢] مُّخْرَجُونَ) :

أيعدكم هذا الذى يدعى الرسالة وهو من البشر ـ أيعدكم ـ أنكم إذا هلكتم ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياءً كما كنتم فى دنياكم .

(* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ) : هيهات ؛اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ ، واقع موقعه ، والتكرار للتأكيد ، ولا تقع غالبًا إلَّا مكررة ، وفاعلها ضمير ، أى : بَعُدَ التصديق ، أو الوقوع .

(لِمَا تُوعَدُونَ) : اللام لبيان ما استبعدوه وهو البعث الذى وعدهم به رسولهم .

(إِنْ هِىَ) : أى ما هى ، ف (إِنْ) هنا للنفى .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) : أى يموت بعضنا ، ويولد بعض آخر .

(افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) : اختلق على الله كذبًا بادعائه النبوة .

---

(١) جملة « إنكم إذا لخاسرون » جواب القسم ، استغنى به عن جواب الشرط ، يقول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والمتأخر هنا هو الشرط

(٢) تأكيد لأنكم الأولى لطول الفصل بينه وبين خبره ، هو قوله « مخرجون » .

التفسير

٣٦ - (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) :

هذه الآية وما بعدها تكملة لحكاية ماتحدث به كبراءُ الكافرين من القوم الآخرين[1] مع عامتهم ، من إنكارهم البعث ؛ لِصدِّهم عن تصديق رسولهم فيما وعدهم به ، مستبعدين أن تكون لهم حياة بعد أن يموتوا ، وتتحلل أجسادهم ، فيصبح المتقدم منهم موتاً ترابًا اختلط بتراب الأرض ، وامتزج بثراها ، وصار جزءًا من أجزائها ، لا يتميز عنها ، ويصبح المتأخر منهم فى الموت عظامًا نَخِرَةً مجردة من اللحوم والأعصاب ؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ »[2] .

وقوله سبحانه : (لِمَا تُوعَدُونَ) بيان للمستبعد ، كأنه قيل : لأى شيء هذا الاستبعاد الذى يستبعدونه ؟ فقيل : إنه لما يوعَدون من وقوع البعث .

والمقصود من الآية أن هؤلاء القوم يستبعدون البعث بعدالموت استبعادًا مؤكدًا لايترددون فيه ، ولهذا أتبعوه بما حكاه الله بقوله :

٣٧ - (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى : لاحياة لنا إلَّا حياتنا الدنيا التى نحياها ، وليس بعدها حياة أُخرى بالبعث بعد الموت ، كما يعدنا من يدّعى أنه رسولنا - فنحن فى حياتنا هذه (نَمُوتُ وَنَحْيَا) فيموت بعضنا ، ويولد بعض آخر ، وينقرض قرن فيأتى قرنٌ . . . إلى آخر الزمان ، فالحياة التى عَنَوْها بعد الموت هى حياة جيل جديد بعد موت الذى قبله ، ولذا عقبوه بقولهم : (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) : أى وما نحن بمبعوثين من قبورنا أحياءً بعد الموت ، فكيف نصدقه فى دعواه ؟ ثم أوغلوا فى تكذيبه والتشنيع عليه ، فقالوا :

٣٨ - (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى : ماهو إلَّا رجلٌ اختلق على الله كذبًا فيما جاءكم به عنه سبحانه ، من الرسالة والإخبار بالمعاد والبعث بعد الموت (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) : أى لايقع قوله منا موقعالقبول والتصديق بما يدَّعيه ويعِدُ به .

---

(١) الذين سبق بيان الخلاف فيهم .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥

(قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) : الصيحة : العقوبة الهائلة ، أو الصوت المفزع الذى أهلكهم الله به .
(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) : أى هَلْكَى هامدين يشبهون غثاءَ السَّيْل : وهو الرميم الذى يحمله من كل يابس بَالٍ مخالطًا لزَبَدِهِ .

(فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكًا لهم ، وفعله : كقَرُبَ ، وَفَرِحَ .

التفسـير

٣٩ـ (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

أى : قال رسول أهل هذا القرن الآخرين ـ عند يأسه من إيمانهم بعد أن أفرغ الجهد فى تبليغهم رسالة ربه ، وسلك معهم إلى ذلك كل مسلك ، قال متضرعًا إلى الله متوجهًا إليه : يا ربى انصرنى على قومى ، فأنزل سخطك بهم ، وانتقامك منهم بسبب تكذيبهم إياى ، وإصرارهم عليه فى عتوٍّ وكبرياء ، فاستجاب الله دعاءه ؛ كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٤٠ ـ (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) :

أى : قال الله تعالى لرسولهم : بعد زمان قليل تالله ليصيرن نادمين حين ننزل بهم العذاب الذى يأخذهم ويستأصلهم عن آخرهم .

٤١ ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

أى : صاح بهم جبريل ـ عليه السلام ـ صيحة مقترنة بالعدل الإلٰهى ، تنفيذًا لوعده الصادق الذى وعده الله رسولهم ـ عليه السلام ـ مَطْوِيًّا فى قوله سبحانه : (لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ).

وقد عرفت مما تقدم أن أصحاب القرن الآخرين إمَّا عاد قوم هود ، فهؤلاء أُهلكوا بصيحة الريح العقيم ، وإمَّا ثمود قوم صالح فهؤلاء أُهلكوا بصيحة جبريل أَو الصاعقة وإمَّا قوم آخرون لهؤلاء أُهْلِكُوا بصيحة أخرى يعلمها الله تعالى .

(فجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً) : أَى هلكى هامدين لا نفع فيهم ولا غناء ، يشبهون غثاء السيل ، وهو مايحمله مما بَلِىَ واسودَّ من ورق الشجر وغيره مخالطًا زبده . (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : لفظ : (بُعْدًا) قد يراد به الدعاءُ ، أَى : فهلاكًا لهم ، بمعنى : أَهْلِكْهم يا أَللهُ إهلاكًا ، وقد يراد به : الإِخبار ، بمعنى : فبعُدوا بُعْدًا من رحمة الله القريبة من المحسنين – بعدوا بهلاكهم – من كل خير ، أَو من النجاة . واللام فى قوله : (لِلظَّالِمِين) لبيان من قيل له : بُعْدًا ، والتعبير بقوله : (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بدلًا من أَن يقال : فبعْدًا لهم إيذان بأَن إبعادهم علَّته وسببه ظلمهم لأَنفسهم ؛ بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(قُرُونًا آخَرِينَ) : أَى أُممًا خلفت الأُمم السابقة . (رُسُلَنَا تَتْرًا) : أَى متواترين وترا بعد وتر ، والوتْرُ : الفرد . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : أَى أَخبارًا يتحدث بها الناس تلهِّيًا وتعجبًا ، وهو جمع أُحدوثة .

التفسير

٤٢ - (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) :

أى : أوجدنا بعد هلاك أمة القرن السابق أممًا وخلائق أخرى ، ويراد بها عند أكثر المفسرين : أقوام صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

٤٣ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى : ماتسبق أمة من الأمم الكافرة التى أهلكها الله - ماتسبق - الوقت المقدر لهلاكها أزلًا ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته لايسبقه ولايتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[1] . وضمير الجمع فى قوله سبحانه : (يَسْتَأْخِرُونَ) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

٤٤ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . .) الآية .

أى : ثم أرسلنا رسلنا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضًا إلى الأمم التى جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولًا منهم خاصًا بهم .

(كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ) :استئناف مبين لما قابلت به كل أمة منهم رسولها من تكذيبهم إياه حين لقائه ، مع أنه واحد منهم ، عرفوه بالصدق ، وصدقه الله بالمعجزة التى أظهرها الله على يديه .

(فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا) : أى جعلنا الأمم فى الهلاك يتبع بعضهم بعضًا ، بمباشرتهم الأسباب الداعية إليه من الكفر والتكذيب ، واقتراف المعاصى .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : بعد أن أهلكوا حيث لم يبق بعدهم إلّا أخبار وأحاديث ، يتحدث بها الناس ، تَلَهِّيًا بها ، وتعجبًا مما نزل بهم من تدمير وإبادة ، وهذه الجملة إنما تقال فى الشر ، ولاتقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثًا ، أى : عبرة ، كما قال تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »[2] .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤ (٢) سورة سبأ ، الآية : ١٩

(فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) أى : فهلاكًا لهم لإعراضهم عن الإيمان برسلهم ، وظلمهم أنفسهم بكفرهم .

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : وبرهان واضح له سلطان على القلوب . (قَوْمًا عَالِينَ) : متجبرين متكبرين ، يقال : عَلَا ، يعلو ، عُلُوًّا : تَجَبَّر وَتَكَبَّر . (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ) : يطلق على الواحد مثل : « بَشَرًا سَوِيًّا » وعلى الجمع مثل : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » .

(لَنَا عَابِدُونَ) : منقادون خاضعون ، وكل من دان للملك فهو عند العرب عابد له أى : خاضع ذليل . (فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أى : المغرقين ، من أهلكته فهو مهلَك .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

التفسير

٤٥ ـ (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) :

يخبر الله تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاهُ هٰرون ـ عليهما السلام ـ بآياته وهى تسع : اليد ، والعصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، نقل ذلك ابن كثير ، وقال : وهذا القول ظاهر جَلِيٌّ ، حسن قوى . ا هـ

وقيل : هى العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس[1] ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّلُ والضفادع ، والدم ، أما فلق البحر الذى عدَّه بعضهم منها ، فلا مساغ لعدِّه ؛ لأنه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وقومه ، وإنما كان بعثه بالآيات التى كذبوها ، واستكبروا عنها ، وهم لم يستطيعوا تكذيبه ؛ حيث أهلكوا فيه .

وعن الحسن : المراد من الآيات التكاليف الدينية التى أُمروا بها ، ومن السلطان : كل معجز أتيَا به . اهـ ويمكن أن يراد بالسلطان: تسلط موسى فى المحاورة ، ووضوح الدلالة على الصانع – جل وعلا – والقوة والإقدام .

٤٦ – (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) :

أى : أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه لغايتين : إحداهما : دعوتهم إلى الإيمان ، والثانية : إطلاق سراح بنى إسرائيل من الأَسر ، فلم يكن إطلاقهم من الأسر هو المقصود وحده من إرسالهما بدليل ما صُرِّح به فى سورة النازعات ، فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » .

وخُصَّ الملأُ – أى الأشراف – بالذكر ؛ لأن إطلاق سراح بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم ، مما أُرسِلا لأجله ، وذلك منوط بآراء الأشراف من قوم فرعون ، وبموافقتهم ، فضلا عن أنهم قدوة لغيرهم يقتدون بهم فى الامتثال والاستجابة لما دعوا إليه .

ويجوز أن يراد بالملإ : قومه جميعا ؛ فقد ورد استعماله لغة بمعنى : الجماعة مطلقا . (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أى : فتمردوا مستكبرين ، وأعرضوا عما دعوا إليه ، وكان فرعون وشيعته قوما متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم والطغيان ، والمراد : أن تلك عادتهم ، وما فُطروا عليه .

٤٧ – (فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ) .

الهمزة للإنكار ، أى : أن فرعون وقومه أنكروا على موسى وهٰرون دعوتهما إلى الإيمان لكونهما بشرين ، شأنهم فى ذلك شأن الأُمم السابقة التى أنكرت بعثة الرسل من البشر ،

---

(١) وهو إذهاب الشىء عن صورته ، وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة .

وقد دعاهم إلى هذا الإنكار ، قياس حال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على أحوالهم ، بناءً على جهلهم بتفاضل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها بحيث يكون بعضهم فى أعلى علِّيِّين ، وبعضهم فى أسفل سافلين ، ومن العجيب أنهم لم يرضوا بالنبوة للبشر ، وقد رضى أكثرهم بالألوهية للحجر ، فقاتلهم الله ، ما أجهلهم !

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ)[١] أى : خاضعون منقادون ، يعملون فى خدمتنا ، ويطيعون أوامرنا كالعبيد ، أرادوا بذلك الحطَّ من قدرهما ، والاستهانة بهما ، وقصور رتبتهما عن الأهلية للرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناءً على زعمهم الفاسد فى قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية المؤسسة على حظوظ الحياة الفانية من المال والجاه ، وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العَلِيَّة ، والملكات السنية ، جبلَّةً ، لا اكتسابا .

٤٨ ـ (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهما ، وأصروا عليه ، فأهلكهم الله بإغراقهم جميعا فى بحر القلزم (البحر الأحمر) أهلكهم جزاء تكذيبهم .

٤٩ ـ (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

يخبر سبحانه إخبارا مؤكدا بأنه آتى موسى ـ عليه السلام ـ التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ، وإنجاء بنى إسرائيل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ؛ لعل من أُرسل إليهم من قوم فرعون وبنى إسرائيل ـ لعلهم ـ يهتدون بها إلى الحق المبين ، وخص موسى بالذكر هنا دون هٰرون ؛ لأن التوراة أُنزلت على موسى فى الطور ، أما هرٰون فهو وزيره ومُعينه فى دعوته ، أو روعى الاقتصار على موسى لأنه الأصل فى الإنباء ، وذلك لا يمنع من إرادة هٰرون معه ، فقد ذكر فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ »[٢] .

---

(١) هذه الجملة حال من فاعل نؤمن فى قولهم (أنؤمن) مؤكدة لإنكارهم الإيمان بهما .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية رقم : ٤٨

(وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(ءَايَةً) : دلالة بينة على كمال قدرته تعالى . (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : أنزلناهما إلى مكان مرتفع منبسط ، يقال : آويته إلى منزلى : أنزلته فيه ، وأويت إلى منزلى : نزلت فيه ، والربوة - بضم الراء ، والفتح - : لغة بنى تميم ، والجمع : رُبًى .

(ذَاتِ قَرَارٍ) أى : يستقر فيها المقيم . (وَمَعِينٍ) أى : ماءٍ جارٍ ظاهر للعيون ، من عَانَهُ ، إذا أدركه بعينه ، وأصله : مَعْيُون ، فدخله الإعلال ، أو من مَعَنَ الماءُ : إذا جرى . فوزنه . فَعِيلٌ .

التفسير

٥٠ - (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ . . . . .) الآية .

أى : جعلنا عيسى بن مريم وأمه دلالة قاطعة على كمال قدرتنا البالغة ؛ حيث حملت به من غير أن يمسَّها بشر .

والتعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه ابن مريم ، وعنها بأنها أمه ؛ للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية ، فإن نسبته - عليه السلام - إليها ، مع أن النسب إلى الآباء ، تؤذن بأنه لا أبَ له ، وذلك هو آية القدرة العظيمة فى إيجاد عيسى - عليه السلام - وتقديمه عليها فى الذكر ؛ لأصالته فيما ذكر من كونهما آية .

(وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : وأنزلناهما فى ربوة ، وهى المكان المرتفع المنبسط ، قيل : هى إيلياءُ من أرض بيت المقدس ، وقيل : هى الرملة من فلسطين ، وقيل : دمشق ، وقيل : مصر .

(ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) : أى يستقر المقيم فيها لطيب هوائها، ونقاء تربتها، وقيل : لأنها ذات زروع وثمار ، تيسِّر الاستقرار لساكنها ، وترغبهم فيه .

ولما كان الماءُ أصل الحياة وسبيل بقائها ، شاء الله أن يكرمهما بالإيواء إلى ربوة ذات ماءٍ ظاهر جار تراه العيون وتتبينه واضحاً ، حتى يكون جامعا لفنون المنافع : من الشرب منه ، وسقْى ما يُسقى من الحيوان والنبات من غير مشقة ، مع ما فى ذلك من الاستمتاع بمنظره المونق ، والاستقرار فى الربوة التى هو فيها .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) : وهى ما لذَّ وطاب من الطعام ، وما حَلَّ منه ، يقال : طاب الشىءُ ، يَطيب طيبا وطيبة ، فهو طيِّب .

التفسير

٥١ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . . .) الآية .

المراد بندائهم وخطابهم جميعا : الإعلام بأن كل رسول نودى بذلك فى زمنه ، وَوُصِّىَ به ، ليعلم السامعون أن أمرا أُعْلِمَ به جميع الرسل ، وطُلب منهم ، وهو الأكل من الطيبات ليعلموا أن أمرا كذلك ـ حقيق أن يتلقوه بالقبول والامتثال .

والمراد بالطيبات ، إمَّا ما تستلذه النفس وتطيب به من مباحات المأكل ، حسبما ينبىءُ عنه سياق النظم الكريم ، وحينئذ يكون الأمر للإباحة ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات ، وإما أن يراد بها ما حلَّ منها ، فيكون الأَمر للوجوب .

وفى الآية إشارة إلى أن الله تعالى سوى بين النبيين وأتباعهم فى تناول الطيبات بمعنييها ، ثم عقب ذلك بقوله : (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) مبالغة فى وجوب امتثال ماأُمِرُوا به من أكل الحلال الذى دُعِىَ إليه الرسل والأنبياء ، وحُذِّرُوا من تركه ، وكذلك جميع أممهم تبعا لهم .

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) : موافقا لما شرع لكم . وقيل : حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رُزقا من كل طيب ، فكأنه قيل : وآويناهما ، وقلنا لهما : هذا — أى : أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكُلَا مما رزقناكما ، واعملا صالحًا اقتداءً بالرسل ، وعلى هذا فالمراد من الجمع فى قوله : « وَاعْمَلُوا صَالِحًا » ما فوق الواحد .

(إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لا تخفى علىَّ خافية مما تعملون من الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة فأُجازيكم عليه .

(وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) :الأمة هنا هى : الدين . (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا) : أى فقطعوا أمر دينهم بينهم قطعًا ، فاتخذوا أديانًا مختلفة ، زُبُر : جمع زبور ، مثل رُسُل : جمع رسول ، وجمع زُبْرة أيضًا — بضم فسكون — والأول بمعنى كتاب ، من زبر بمعنى كتب ، أما الزُّبْرة فبمعنى القطعة .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحِزْبُ : جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، والطائفة وجماعة الناس .

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ) : الغمرة الانهماك فى الباطل ، والجمع : غَمَرات ، مثل : سجدة وسجَدات .

(حَتَّى حِين) : إلى الوقت المعين لعذابهم .

التفسير

٥٢ – (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) :

الإشارة فى قوله : (وَإِنَّ هَٰذِهِ) إلى ماتقدم فى السورة من العقائد والأحكام ، ومنها الأكل من الطيبات وعمل الصالحات ، والأمة بمعنى المِلَّة ، أى : وإن هذه العقائد وأصول الأحكام ملتكم أيها الرسل ملة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، بتبدل الأزمنة والأعصار ، أما الفروع فإنها تختلف ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ) : بدون شريك لى فى الربوبية . (فَاتَّقُونِ) أى : فخافوا عذابى على مخالفة أمرى ، وإخلالكم بواجب طاعتى ، مع علمكم باختصاص الربوبية بى للرسل وللأمم جميعًا . والفاءُ فى قوله تعالى : (فَاتَّقُونِ) لترتيب وجوب تقوى الله على ما قبله من الاتحاد فى الدين ، واختصاص الربوبية به تعالى ؛ فإن كِلَا الأمرين موجب لاتقائه حتمًا .

٥٣ – (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

حكاية لما وقع من أمم الرسل ، أى : أنهم قطعوا أمر دينهم فجعلوه زُبُرًا ، أى : قطعًا متعددة ، وفرقوه فرقا مختلفة ، كل جماعة تنتحل نحلة مخالفة للحق ، بعد ما أُمروا بالاجتماع والاتحاد على ملة واحدة تجمع العقائد وأُصول الأحكام .

وزُبُرًا – على هذا – جمع زُبْرة ، وهى : القطعة ، ويؤيد هذا قراءة (زُبَرًا) بفتح الباء جمع زُبْرة ، كغُرفة ، وهى القطعة ، فتلخص من هذا أن زُبْرَة تجمع على زبر بضم الباءِ وفتحها .

ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فآمنوا ببعض ما أُنزل عليهم ، وكفروا بما سواه ، اتباعا لأهوائهم ، أو أنهم وضعوا كتبًا وألفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله – كما قاله ابن زيد – وعلى هذا يكون زُبُرًا جمع زبور بمعنى كتاب .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتابًا آمن به ، وكفر بما سواه .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : والمعنى كل فريق من هؤلاء المتحزبين الذين قطعوا دينهم فرحون بما عندهم من الدين الذى اختاروه وركنوا إليه ؛ لاعتقادهم أنهم على الحق .

وبعد أن عرض القرآن الكريم على أسماع قريش أن جميع الديانات السماوية مجمعة على عقيدة واحدة هى التوحيد ، وأن الله تعالى هو رب الجميع وأن أصول الشرائع واحدة ـ بعد هذا ـ أمر سبحانه رسوله أن يتجاوز إلى أمدٍ عن غفلتهم وإهمالهم لهذه الحقائق ، فقال تعالى :

٥٤ ـ (فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

والمعنى : فاترك ـ أيها النبى ـ هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذى لا ضلال بعده ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ فقد بلَّغت الرسالة التى أمرت بتبليغها حق الأداء « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[1] .

والفاء فى قوله سبحانه : (فَذَرْهُمْ) لترتيب الأمر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم من الدين الذى اختاروه ، أى : اتركهم (حَتَّى حِينٍ) وهو حين قتلهم فى يوم بدر ، على ما روى عن مقاتل ، أو حين موتهم على الكفر ، وعذابهم فى الآخرة ، فالآية وعيد بعقابهم فى الدارين ، وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإرشاد له بترك الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره ، وذلك نظير قوله تعالى : « فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »[2] .

ويجوز أن تكون بشارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما تم له من فتح مكة ، وهم فى غفلتهم عن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ١٨

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٣

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(أَيَحْسَبُونَ) : أيظنون ، وفعله من باب فرِحَ عند جميع العرب إلّا بني كنانة فإنهم يكسرون عين المضارع مع الماضى أيضًا على غير قياس ، والمصدر : حِسْبَانًا ، بكسر الحاء .

(نُمِدُّهُمْ) : نزيدهم ونعطيهم ، وفعله : أَمَدَّ ، ويكون فى الخير غالبًا .

(بَل لَّا يَشْعُرُونَ) : أى بل لا يعلمون ، والفعل من بَابَىْ (قَعَدَ ، وَكَرُمَ) .

التفسير

٥٥ - (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ) :

أى : أيظن هؤلاء العصاة المغرورون أننا إذْ تركناهم يتمتعون وينعمون بما أعطيناهم إياه ، وأمددناهم به من مال وبنين ، أيظنون أننا بهذا الإمداد :

٥٦ - (نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا أنه مسارعة لهم فى الخيرات ، ومعاجلة فى الثواب لإكرامهم وخيرهم ، وإنما هو إملاء واستدراج إلى المعاصى لزيادة دنوبهم بسبب إصرارهم عليها ، كما يقول سبحانه : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »(١) .

والهمزة فى (أَيَحْسَبُونَ) لإنكار ما ظنوه وحسبوه ، واستقباح له ، وقوله تعالى : (بَل لَّا يَشْعُرُونَ) تجهيل لهم وتخطئة ، أى : بل هم لا يعلمون شيئًا أصلًا ، ولا فِطْنَةَ بهم حتى يتأملوا ويعرفوا أن ما حسبوه خيرًا لهم ، إنما هو شر يؤدى بهم حتمًا إلى أسوإ العواقب .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٧٨

(إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) : أى من هيبته وحذر عقابه خائفون .

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآءَاتَوْا) : أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات .

(وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) : خائفة ، وفعله من باب : (فَرِحَ) .

التفسير

٥٧ ـ (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

استئناف مسوق لبيان من هم المؤمنون المسارعون فى الخيرات وما وعدوا به من جزيل الثواب ، أتى بذلك عقب ذكر الكفار وتوعدهم بما يُقنطهم من رحمته ، ويبطل حسبانهم الكاذب ، وأملهم الخادع ، ذكرهم سبحانه بأخص صفاتهم وأكملها ، فبيَّن أنهم من أجل خوفهم من ربهم خائفون من التقصير فيما كلفهم به ، مع صدق إيمانهم وصالح عملهم ، كما قال الحسن البصرى : (إن المؤمن جمع إحسانًا وإشفاقًا ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا) .

٥٨ ـ (وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) :

أى : من أَجلِّ أوصافهم الإيمانُ بآيات ربهم المنزلة على رسله ،فهم يؤمنون بها جميعًا ، لايفرقون بينها ، وليسوا كأهل الكتاب الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه ، وكذلك يؤمنون بآياته الكونية التى نصبها سبحانه للدلالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه .

٥٩ - (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) :

أى : لا يشركون بربهم غيره ، شركًا جليًا ، ولا شركًا خفيًا ، بل يعبدونه وحده موقنين بأنه لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

والتعبير بكلمة (بِرَبِّهِمْ) هنا وفيما سبق للدلالة على أن اعترافهم بربوبية الله لهم جعلهم يشفقون ويؤمنون به تعالى ، ويفردونه بالعبادة ، فلا يشركون معه أحدًا ، مع ما فيها من إشارة إلى ما لربوبيته تعالى لعباده من دخل كبير فى وجوب توحيده وعبادته .

٦٠ - (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) :

أى : يعطون العطاء : زكاة أو صدقة ، وهم خائفون ألَّا يقبل منهم ، أو لا يقع على الوجه اللائق ، لتقصير فى الوفاء بحق الإعطاء قد يكون بدر منهم .

وقرئ بالقصر ، بمعنى أنهم يفعلون ما فعلوا من العبادات ، وقلوبهم خائفة من الله جل شأنه ألَّا تكون على وجهها الكامل لشائبة من التهاون قد يُبعدها عن أن تقبل منهم .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى هذا المعنى ، فقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ، وابن المنذر وابن جرير وجماعة : عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَآ أَتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى ألَّا يَتَقَبَّل منه » .

والتعبير بالمضارع فى (يُؤْتُونَ) للدلالة على الاستمرار فى العطاء ، وبالماضى فى : (مَا آتَوْا) للدلالة على تحققه . (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أى : وجلت قلوبهم خوفًا من أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم لعدم الإحسان فيها لأنهم إلى ربهم عائدون ومبعوثون يوم القيامة ، فتنكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ينجيه يوم لا ينفع المرء إلَّا ما قدمت يداه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] .

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٦١ - (أُوْلَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة يبادرون بنيل الخيرات الدنيوية والأخروية ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما فى قوله تعالى : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ »[1] . وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

عن ابن عباس قال : (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) سبقت لهم من الله السعادة ؛ فسارعوا فى الخيرات اهـ .

وقيل : يسارعون فى الخيرات ولم يَقُلْ : يُسَارَعُ لهم فى الخيرات ، إشارة إلى أن ثقتهم بوعد الله بنيلهم الخيرات بمحاسن أعمالهم ، جعلتهم يسارعون إليها ، وإيثار كلمة (فى) فى قوله تعالى : (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) على كلمة (إِلَى) للإيذان بأنهم ملازمون لها ، متقبلون فى فنونها ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها على سبيل المسارعة .

ويجوز أن يكون المعنى : يسارعون إلى الطاعات ويبادرون إليها ، وهم لأجلها فاعلون السبق إليها ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، أو إلى الجنات ، أو أنهم يسبقون إلى أول أوقاتها طلبًا لفضل أدائها .

ويجوز أن يكون المعنى : وهم أهل للسبق إليها بما منحهم الله من التوفيق ، كقولك لمن تطلب منه حاجة لاترجى من غيره : أنت لها ، وهو من أبلغ الكلام وأدقِّه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٨

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) :الوسع ـ مثلثة الواو ـ : الطاقة والقدرة ، أى : لا يحمِّلها الله ما يشق عليها . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ) : المراد به صحائف أعمالهم ، أو اللوح المحفوظ .

(إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) : المترف ؛ هو الجبار الذى أطغته النعمة ، وفعله : أُتْرِفَ .

(إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) : يضجون ويرفعون أصواتهم دعاءً واستغاثة ، يقال : جَأَرَ ، يَجْأَرُ ، جَأْرا ، وجُؤارا ، أى : صاح أو تضرع .

التفسير

٦٢ ـ (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

استئناف قصد به التحريض على ما وصف به السابقون الصالحون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، بمعنى أن الله سبحانه اقتضت حكمته ألَّا يكلف نفسا من النفوس بأمر من الأُمور الشاقة التى تُعْييه وتُجهده ، وإنما يكون التكليف بما يتسنَّى أداؤه لكل مكلف فى سهولة ويسر وفق طاقته ، فإن لم يبلغ المكلفون بعملهم مراتب السابقين فلا حرج عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ، ويستفرغوا وسعهم . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ) : تتمة لما قبله ببيان أنهم محاسبون على كل ما يصدر منهم ثوابا أو عقابا ؛ حيث إن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة وقعت

منهم إلَّا أحصاها ، والمراد بالكتاب : صحائف أعمالهم التى ترفعها الملائكة ، وَيُكَلَّفُ أصحابها بقراءتها عند الحساب والجزاء . وقيل : المراد بالكتاب صحائف يقرأونها ، فيها ما ثبت فى اللوح المحفوظ ، وهو يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا وجزاء ويبينه للناظر واضحا كما يبينه النطق به. (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : ذكرت هذه الجملة لبيان أن عدله سبحانه يكون على أتم وجه وأكمله فى الجزاء ، وذلك إثر بيان رحمته ، ولطفه فى التكليف ، وأن كتب أعمالهم تعرض عليه سبحانه وفق واقعهم .

والمعنى : أنهم يوم القيامة لا يقرأون فى كتبهم إلا ما هو صدق وعدل ، فلا زيادة فيها ولا نقصان ، ولا يُظلم منهم أحد بزيادة عقاب ، أو نقص ثواب .

٦٣ ـ (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) :

فى هذه الآية انتقال من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفار .

والمعنى : بل قلوبهم فى غفلة غامرة أعْمتهم عن الذى بُيِّن فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بأعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد ، فيجزون بها ، ويعاقبون عليها ، أو أعْمتهُم عما عليه المؤمنون الموصوفون بما سبق من الصفات الكريمة .

وقيل : الإشارة إلى القرآن وإلى ما بُيِّن فيه مطلقا ، روى ذلك عن مجاهد .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) : أى ولهم أعمال سيئة كثيرة سوى غفلة قلوبهم عن أن عند الله كتابا ينطق بالحق .

(هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) : وعليها مقيمون ، وبها مستمسكون ، لا ينفكون عنها بغيا وطغيانا .

٦٤ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ) :

أى : لايزالون يعملون أعمالهم الفاسدة إلى حين أَخْذ مترفيهم بالعذاب ، فيضجون ويرفعون أصواتهم فزعين ، قال ابن عباس وغيره ، : كان ذلك فى يوم بدر ؛ فقد قتل منهم فى ذلك اليوم عدد كثير من صناديد قريش ورؤسائهم الذين أفاء الله عليهم بكثرة المال والبنين .

وقال الضحاك : يراد بالعذاب : الجوع الذى نزل بهم حين دعا عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسِنِى يوسف » فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والجيَف، وهلكت الأموال والأولاد .

والحق أنه العذاب الأُخروى ؛ إذ هو الذى يفاجئون عِنده بالجؤار ، فيجابون بالرد والإقناط من النصر والنجدة ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ »[1] فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر .

وأما عذاب الجوع ، فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لكن لم يرد عليه بالإقناط ، حيث روى : « أنه– عليه الصلاة والسلام – قد دعا بكشفه ، فكشف عنهم ذلك » ا هـ .

(إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ) : أى يصرخون ويضجون مستغيثين بربهم من مفاجأة العذاب لهم ، وتخصيص مترفيهم بالأَخذ بالعذاب مع عموم عذاب الآخرة لهم ولغيرهم ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة بحماية الأَتباع والحشم لهم فى الدنيا ، لم ينفعهم يوم القيامة حيث لقوا ما لقوا من الأَهوال والشدائد ، فلأَن يلقاها سواهم من تابعيهم وحشمهم أحق وأولى .

٦٥– (لَا تَجْئَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك لتبكيتهم وإقناطهم من أن يستجاب لصراخهم وضجيجهم من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله ، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار .

(إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) : تعليل للنهى عن الجؤار ببيان أنه لا ينفع ولا يفيد ، فلا نصر لهم ولا معونة منه تعالى تنجيهم مما حلَّ بهم من هول وعذاب . وقال الحسن : لا تنصرون بقبول التوبة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٧٦

(قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) : يقال نكص على عقبه نكوصًا ، من باب (قَعَدَ) أى : رجع ، والعقِبُ : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة ، وقال ابن فارس : النكوص عن الشيء : الإعراض عنه .

(سَامِرًا) أى : سُمَّارًا ؛ لأن (سَامِرًا) اسم جمع كالحاج ، أو مصدر فيقع على القليل والكثير بلفظ واحد ، والمراد منه هنا : الجماعة من الكفار يسمرون بالليل حول الكعبة ؛ لسَبِّ النبى - صلى الله عليه وسلم - وذم القرآن ، وأصل السمر : سواد الليل ، ثم أطلق على الحديث فيه ، كما قال الراغب .

(تَهْجُرُونَ) أى : تنطقون بالهجر وهو الفحش ، أو تهذون بما لا يفيد كما يهذى المريض يقال : هجر يهجُر هَجْرًا وهُجْرًا - بفتح الهاء وضمها مع سكون الجيم - فهو هاجر.

التفسـير

٦٦ - (قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) :

أى : قد كانت آيات القرآن تقرأ عليكم فى الدنيا ، فلم تُقبلوا على سماعها للانتفاع بهداها الذى يدعوكم إلى طريق الخير والنجاة ، بل أعرضتم عما دعيتم إليه ، شأنكم شأن من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقرى ناكصًا ناحية عقبه ، والنكوص أقبح المشى ؛ لأن الناكص لا يرى ما وراءه .

٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) :

الضمير فى قوله : (مُستكْبِرِينَ بهِ) يعود على البيت الحرام الذى كانوا يسمرُون حوله[1] ، أى : مستكبرين على المسلمين فى البيت الحرام ؛ حيث منعتموهم من أداءِ شعائرهم حوله ، وكنتم مع ذلك تجتمعون للسمر والتآمر ضدهم ، والطعن فى القرآن الكريم ، وذم النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أن الله جعل البيت حرمًا آمنًا لجميع خلقه ، يُذكر فيه اسمه ، ويُعَظَّم كتابه ، ويُوقَّر رسوله ، ولا يؤذَى فيه المؤمنون من عباده . وقيل : الضمير عائد على (آيَاتِي) فى قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ » لأنها فى معنى كتابى الذى هو القرآن الكريم ، واستكبارهم به : تكذيبهم بآياته ، بتضمين (مُسْتَكْبِرِينَ) معنى مكذبين ، فعُدِّىَ تَعدِيَتَهُ .

وحاصل المعنى : أنهم كانوا يجتمعون بالليل حول البيت ، ويتحدثون فى غالب سمرهم عن القرآن بتسميته سحرًا أو شعرًا أو أساطير الأولين ، مع اتصافهم بأنهم مع هذا يهجرون ، أى : ينطقون بالفحش من كل قول ، أو يهذون بالسفه البذئ ، والجهل الممقوت فى سب القرآن أو النبى أو الحق مطلقًا .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾)

المفـردات :

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أى : القرآن . (فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) أى : غير عارفين للنبى حقه بعدم تدبرهم القول الذى جاءَ به ، مِن أنكرته إنكارًا ، ضد : عرفته .

(بهِ جنَّةٌ) الجِنة : الجنون ، كما تطلق على الجن ، وسيأْتى بيان ذلك .

---

(١) والباء بمعنى : (فى) .

التفسير

٦٨ - (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه معجز وأنه دليل على صدق الرسالة ، فيؤمنوا به ؟ والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

(أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) : إضراب وانتقال من التوبيخ بما سبق إلى توبيخ آخر ، أى : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت أسلافهم حتى استبعدوه ، وخاضوا فيه بما خاضوا من الكفر والعناد والإمعان فى الضلال ؟ فالهمزة هنا لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع ؛ بمعنى أن مجيء الرسل بالكتب من جهته تعالى لينذروا بها الناس سنَّةٌ قديمة له سبحانه لا مساغ لجحودها ، ومجيء القرآن وفق هذه السنة ، فلأى سبب ينكرونه ويتركون تدبره ؟ إنه لا سبب لذلك إلا التمادى فى الظلم والعدوان .

وقيل : المعنى : أغفلوا فلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ؟ أم جاءهم من أسباب الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين الذين خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ، فأطاعوه حق طاعته ، والهمزة على هذا للإنكار أو للتقرير تهكمًا .

٦٩ - (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

إضراب انتقالى لتوبيخ الكافرين من قريش بوجه آخر ، أى : بل ألم يعرفوا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - متصفًا بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، ورجاحة العقل ، وصحة النسب ، وبكل الكمالات اللائقة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟ بل لقد جاءهم من عرفوه بكل ذلك ، فقد كانت كلمتهم قبل مبعثه متفقة على تسميته بالصادق الأمين ، وغير ذلك من كرام السجايا ، ولذلك قال أبو سفيان بن حرب لملك الروم (هرقل) حين سأله وأصحابه عن صفات النبى - صلى الله عليه وسلم - صدقه وأمانته ، - قال أبو سفيان : ماجربنا عليه كذبا ، وكانوا حينئذ كفارًا لم يسلموا ، ومع هذا ما أمكنهم إلّا الصدق ، فاعترفوا بذلك ، وقال جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته .

فإذا كان محمد كذلك فكيف ينكرون نبوته ، ويجحدون صفاته بعد أن اعترفوا بها ؟ إن ما وقع منهم كان حسدًا وبغيًا ، قال سفيان الثورى : بل قد عرفوه ولكنهم حسدوه .

٧٠ـ (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

انتقال إلى توبيخ آخر ، أى : بل أيحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع الذى يعرفونه حق المعرفة ؛ حيث إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرجح الناس عقلًا ، وأضوؤهم ذهنًا ، وأصحهم رأيًا ، وأوفرهم رزانة . (بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ) : أى : بل جاءهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق البيِّن ، وهو القرآن والتوحيد والدين القيم الذى لا محيد عنه ، فلا صحة لما يقولون .

(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) : المراد بالحق الذى كرهه أكثرهم ، إما كل حق ، ويدخل فيه دين الإسلام ، وإما دين الإسلام خاصة ؛ فقد كرهه أكثرهم حسدًا وبغيًا ، وكان فيهم من لا يكرهه ، ولكنه يتابع قومه فى الإعراض عنه والكفر به أنفةً واستكبارًا ، وحذرًا من تعيير قومه ، أو من وقوع أذى به أو نحو ذلك من عدم فطنته وقلة تفكره ، لا كراهةً للحق من حيث هو حق .

وإيثار الإظهار فى مقام الإضمار حيث لم يُقَلْ : (وأكثرهم له) لوضوح الإظهار فى ذمهم والتشنيع عليهم ، ولدفع ما قد يتوهم من عود الضمير على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخاصة .

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ) : المراد بالحق : الله سبحانه وتعالى ، وقد يراد به الحق المطابق للواقع ، أو النبي ، والمراد بأهوائهم : ما يهواه الناس ويشتهونه .

(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : الذكر هنا بمعنى الشرف ، أى : أتيناهم بالكتاب الذى فيه عزهم وشرفهم . (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا) : أى أجرًا عن التبليغ . (عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) : مائلون منحرفون عن طريق الجنة ، وهو الصراط المستقيم ، وفعله من باب (قَعَدَ) يقال : نكب عن الطريق ، نكوبًا ، ونكْبًا : إذا عدل عنه ومال إلى غيره[1] .

التفسـير

٧١ - (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . .) الآية .

أى : ولو اتبع الحق سبحانه أهواءهم الزائفة ، فوافقها بتشريع ما يشتهون ، لكانت الطامة الكبرى ؛ حيث تفسد السموات والأرض ومن فيهن ، وتخرج عن الصلاح والانتظام بالكلية ؛ لأن رغبات الناس قاصرة ، وشهواتهم تختلف وتتضاد بما ينجم عنه أشد الفساد ، وأقوى التنابذ والخلاف ، ولكن الكون تام الصلاحية ؛ لأنه جاء وفق مراد الحق تبارك وتعالى دون شريك ؛ إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا »[2] .

(١) ويأتى (نكب) أيضا من باب : (فرح) فيقال : نكب ، ينكب ، نكبا .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

وخُصَّ العقلاءُ بالذكر فى قوله تعالى : (وَمَن فِيهِنَّ) لأن غيرهم تبع لهم فى الصلاح والفساد . (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : انتقال من التشنيع عليهم بما سبق إلى التشنيع عليهم لإعراضهم عما جبلت عليه النفس من الإقبال والرغبة فيما فيه خيرها ونفعها ، أى : بل أتيناهم بالقرآن الذى فيه عزهم وشرفهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] فكان يجب عليهم لهذا أن يسرعوا إليه ، ويقبلوا ما فيه أكمل قبول ، ولكنهم عكسوا الآية (فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ) أى : فَهُمْ بما فعلوا من نكوص وإعراض معرضون عما فيه شرفهم وفخرهم ، وبيان ثوابهم وعقابهم ، مسرعون إلى نقيضه مما لا يطلب منهم الإقبال عليه والاهتمام به .

وفى وضع الظاهر موضع المضمر حيث لم يُقل : (فَهُمْ عَنْهُ) إشارة إلى مزيد من التشنيع عليهم والتقبيح لهم .

وقيل : المراد بذكرهم : ما تمنوه بقولهم : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »[2] والحق أنه قد جاءهم ذكر خير من ذكر الأولين ، أى : كتاب خير من كتبهم ، فأعرضوا عنه جهلًا وعنادًا .

٧٢ـ (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

انتقال لتوبيخ آخر يوبخ به سبحانه الكافرين على عدم إيمانهم بما جاءهم به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجرًا ، والمعنى : بل أتسألهم يا محمد أجرًا على الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟ (فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) : الجملة تعليل لنفى السؤال الذى استفيد من الإنكار ، أى : لم تسألهم ذلك ، ولا يتأتى منك ؛ فإن ما رزقك الله إياه فى الدنيا ، وما أعده لإثابتك فى الآخرة خير من رزقهم ؛ لدوام رزق الخالق واستمراره وعدم تَحَمُّل المنة فى رزقهم .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ إيذان بأعظم التشريف وأكمل التعظيم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخَرْجُ أقل من الخَرَاج ، فهو بمعنى :

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٤٤ (٢) سورة الصافات ، الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

العطاء القليل ، أما الخراج فهو العطاءُ الكثير ؛ لأن كثرة المبنَى تدل على كثرة المعنى ؛ ولذا عُبِّر بالأَّول فى جانب الخلق ، وبالثانى فى جانب الخالق ، وقيل : إنهما سواءٌ فى المعنى .

(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : تأْكيد لخيرية عطائه ورزقه ؛ فإن مَنْ كان خير الرازقين يكون رزقه خيرًا وأوفى من رزق غيره ، بمعنى أنه لا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن يُنعم قدر إنعامه .

٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : إلى دين الإسلام الذى تشهد الفِطَرُ السليمة باستقامته وتنزهه عن أى شائبة تلحقه ، أو اعوجاج يعيب منهجه ، والصراط : الطريق ، وسمى الدين طريقًا لأَنه يؤدى إلى الجنة ؛ فهو طريق إليها .

٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) :

هم كفار قريش المحدَّث عنهم فيما سبق ، وقيل : المراد ما يعمهم ويعم غيرهم من الكفار المنكرين للبعث ، وتدخل قريش فى ذلك دخولًا أوليًّا ، وقد وصفوا بعدم الإيمان بالآخرة ، تشنيعًا عليهم بما يفعلونه من إقبال على الدنيا ، واستمساك بها ، زاعمين : أنه لا حياة لهم بعد هذه الحياة ، ولو كانوا يؤمنون بها لخافوا سوءَ المصير فيها بكفرهم بالحق الذى جاءهم على لسان رسوله .

المعنى : وإن الذين لا يُصدقون بالآخرة وأهوالها لمعرضون عن الصراط السوى ، ومنحرفون عنه ، ولو آمنوا بها لفكروا قبل أن يكفروا بما جئتهم به ، ولهداهم التفكير إلى الصراط السَّوى الذى يوصلهم إلى رحمة الله .

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

المفردات :

(مِن ضُرٍّ) : من شدة وسوء حال . (لَّلَجُّوا) : لتمادوا . (فِي طُغْيَانِهِمْ) : فى إفراطهم فى الكفر بالحق . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون بين أساليب رد الحق ، وهو مضارع (عَمِه) بوزن فرح ومنع ، ومصدره : العَمَهُ والعُمُوه . (فَمَا اسْتَكَانُوا) : فما خضعوا . (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أن يرحمهم .

(مُبْلِسُونَ) : متحيرون يائسون من كل خير .

التفسير

٧٥ــ (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

أى : ولو رحمنا أهل مكة ، وأزلنا ما لحقهم من ضر وشدة ، بسبب القحط الذى حل بهم عقابًا لهم ، لتمادوا فى الكفر بالحق يترددون بين أساليب رده ، ولم يرتدعوا عن طغيانهم بعد ما رفع الله الضر عنهم .

وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد دعا عليهم ، فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ــ كما رواه ابن عباس ، وقد حقق الله دعاءه ، فقد بعث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ محمد بن مسلمة فى سَرِيَّة إلى بنى بكر بن كلاب ، فجاء بثُمامة بن أثال الحنفى إلى المدينة ، فامتنع عن الإسلام ثلاثة أيام ، ثم أسلم وخرج معتمرًا ، فلما قدم بطن مكة لبَّى ، وهو أول من دخلها ملبيًا من المسلمين ، ومن هنا قال أحد بنى حنيفة

ومنَّا الذى لبَّى بمكة مُعْلِنًا ... برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا وصَبَوْتَ يا ثمامة ، قال : أسلمت واتبعت خير دين ، دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة - وكانت ريفًا لأهل مكة - حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا لمكة شيئًا حتى أضرَّ بهم الجوع ، وأكلت قريش العِلْهز[1] ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا ، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ثُمامة - رضى الله عنه - : « خَلِّ بين بنى قومى وبين مِيرَتِهم » ففعل .

وفى رواية أن أبا سفيان جاءه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : ألست تزعم ... إلخ وكان هذا قبل الفتح بقليل[2] .

وقد نزلت الآية الكريمة لتبين أن كشف الضر عنهم بسعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكتابته إلى ثُمامة لن يؤثر فى قلوبهم المريضة ، بل سيظلون فى طغيانهم يترددون .

٧٦ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) :

هذه الآية تسجل على قريش عنادهم فى كفرهم ، وأن الآيات والنذر لا تنفعهم ، فإذا كانوا لم ينزعوا إلى الإيمان بامتحانهم بآية العذاب والضُّر ، فكيف يؤمنون برحمتهم وكشف الضر عنهم ؟ .

والمعنى : ولقد أخذنا قريشًا بعذاب الجوع والقحط ، فما خضعوا به إلى الحق ، وما يتذللون لربهم ويدعونه بإيمان وصدق لكى يكشف الضر عنهم ، فقلوبهم مع أوثانهم وليست مع خالقهم ، ومن كان أمرهم ذلك ، فلن يخضعوا برحمته تعالى وكشف ضره عنهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن الأمر كما قاله العليم الخبير : « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[3] .

---

(١) العلهز : طعام يؤكل فى المجاعة من الدم والوبر ، ويطلق أيضا على القراد الضخم .
(٢) انظر الآلوسى .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥

٧٧ - (حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) :

لفظ : (حَتَّى) يدل على أن الكلام بعدها غاية لما قبلها ، والمراد بالعذاب الشديد الذى يفتح عليهم بابه : إمَّا ما يكون بفتح مكة ، وإمَّا ما يحدث يوم القيامة .

والمعنى : أنهم مستمرون فى عنادهم وكفرهم لا تفيدهم الآيات والنذر ، حتى إذا فتحنا عليهم بابًا موصلًا إلى عذاب شديد لا طاقة لهم به ، كما حدث لهم يوم فتح مكة ، أو كما سوف يحدث لهم يوم القيامة ، إذا هم فيه مُتَحيِّرون آيسون من كل خير .

أما عذابهم يوم فتح مكة ، فهو عذاب اليأْس والقنوط من الانتصار على محمد والقضاء على دينه ، واستسلامهم له أذلة صاغرين ، وأما عذابهم يوم القيامة فيكون لمن مات منهم على كفره قبل الفتح ، أو كتم كفره ونافق بالإيمان بعد الفتح .

وفى المعنى الثانى يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »[١] ، ويقول : « لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »[٢] .

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب ، مفردها فؤاد . (ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم وبثكم فيها[٣] . (تُحْشَرُونَ) : تجمعون . (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : وَلِأَمر الله وتدبيره يرجع تعاقب

(١) سورة الروم ، الآية : ١٢ (٢) سورة الزخرف ، الآية : ٧٥

(٣) قال صاحب القاموس : ذرأ كجعل : خلق ، وذرأ الشىء : كثره ، ومنه : الذرية - مثلثة - لنسل الثقلين .

الليل والنهار ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان أى : يتردد عليه ، أو المراد باختلافهما تفاوتهما زيادة ونقصانًا ، وظلامًا وضياءً .

التفسير

٧٨ – (وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) :

بعد أن بين الله إصرار أهل مكة على الكفر بعد ما تعاقبت عليهم الضراءُ والسراءُ ، وأنذرهم بسوء العاقبة حينما يَفتح عليهم بابًا ذا عذاب شديد – بعد أن بين الله ذلك – جاءت هذه الآية وما بعدها ، لتذكرهم بآيات الله ونعمه فيهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتجنبون بالإيمان سوءَ مصيرهم .

والمعنى : والله هو الذى خلق لكم حينما أنشأكم – خلق لكم – حاسة السمع لتدركوا بها المسموعات من خير أو شر : ضر أو نفع ، كما تدركون بها مختلف العلوم والمعارف فى أمور دنياكم وأُخراكم ، وخلق لكم الأبصار ، لتسلكوا السبل على هداها ، وتنظروا بها الصديق والعدو والحسن والقبيح ، وتدركوا آيات الجمال والكمال فى كون الله ، وتتعرفوا ما يصلح من الأرزاق وما لا يصلح ، وتميزوا بها شتى الألوان والأحجام وغير ذلك من سائر المدركات عن طريقها ، مما لا يحيط به العادّون ، ولا يستقصيه الحاسبون ، وخلق لكم العقول ، لتحكموا بها على ما يصل إليكم عن طريق الأسماع والأبصار وسائر الحواس ، وتوازنوا بها بين المدركات وتسوسوا بها نفوسكم ناحية الخير ، وتبعدوها عن موارد الهلكة ، وتبسطوا بها سلطانكم على الأرض التى جعلكم الله خلفاءَ عليها وعلى ما فيها وما فوقها : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

والله تعالى يخرج الناس من بطون أُمهاتهم بحواسهم خالية من الإدراك ، ولكنها صالحة له ، حتى إذا ما تواردت عليها المدركات انتبهت إليها وتدرجت فى النمو شيئا فشيئا حتى تصل كل نفس إلى مستواها من الإدراك الذى شاءه الله لها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[١] ، لما كان السمع يسبق الأبصار فى الإدراك ، والأفئدة تتأخر فيه عنهما ، فلذلك جاءت مرتبة هكذا فى آيات القرآن العظيم[٢] .

ولقد ختم الله الآية هنا بقوله : « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » والخطاب هنا للكافرين . والقلة إما بمعنى العدم ، أى : لا تشكرون الله أصلًا ، أو بمعناها الحقيقى ، فهم إن شكروا الله فشكرهم له قليل بالنسبة لشكرهم لآلهتهم ، فهم فى معظم أحوالهم ينسبون إليها النصر والمطر والرزق والشفاء من الأمراض ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ، والمقصود من الشكر هنا : صرف تلك الحواس لما خلقت له ، وأهم ما خلقت له : العبادة الخالصة لله ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وقيل : إن الخطاب فى الآية من أولها لآخرها موجه إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، والحكم بقلة شكرهم ، لأن الذين يشكرونه تعالى هم المؤمنون ، وهم فى الناس قليلون ، وما قلناه أولًا أظهر وأوفق بالسياق .

٧٩ - (وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

والله هو الذى خلقكم من نفس واحدة خلق منها زوجها ، وكثركم ونشركم فى الأرض بتناسلهما وذرياتهما لتعمروها وتكونوا فى عمارتها خلفاء عنه تعالى ، ولستم بمخلدين فيها ، بل تموتون حين تحين آجالكم ، وإليه لا إلى غيره تحشرون وتجمعون بعد أن يبعثكم أحياء من قبوركم ، ليحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٨٠ - (وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

والله هو الذى يهب الحياة لكل كائن حى ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، ويسلبها منه حين يميته ، وتراه فى سلطانه على خلائقه «يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ»

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٨

(٢) علق المختصون من الأطباء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على آية (النحل) فى كتاب (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم) بقولهم : أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جدا فى حياة الطفل فى الأسابيع القليلة الأولى ، وأما البصر فيبدأ فى الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الأبصار إلا بعد الشهر السادس : أما الإدراك بالفؤاد فلا يكون إلا بعد ذلك : انتهى بتصرف يسير .

وهذا شاهد على أنه تعالى كما بدأ الخلق يعيده ، مصداقًا لقوله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »[١] .

وكما أنه يختص بالإحياء والإماتة ، فإنه تعالى يرجع إليه وحده التدبير فى اختلاف الليل والنهار .

والمراد باختلافهما : أن يجىء كلاهما خلف الآخر ، أو أن يتفاوتا طولًا وقصرًا ، نورًا وظلامًا ، وفى ضوء النهار تتحرك الكائنات الحية إلى معايشها وأرزاقها ، وفى الظلام تسكن وتستريح من سعيها ومتاعبها : « سُنَّةَ اللهِ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » وختم الله الآية بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : أترون هذه الآيات فلا تعقلون دلالتها على الخالق سبحانه ووجوب عبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسله والاهتداء بهديه ، والعمل ليوم البعث والنشور ؟ : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ »[٢] .

(بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها للتلهى بها ، جمع : أسطورة ، كأُحدوثة وأحاديث ، وأعجوبة وأعاجيب ، وقيل : جمع أسطار جمع سَطْر ، فهى جمع جمع ، واختيار الزمخشرى الأول ، لأن جمع المفرد أولى من جمع الجمع وأقيس ، ولأن وزن أفعولة يأتى لما فيه التلهى ، فيكون القرآن – فى نظرهم الفاسد – مكتوبات لا طائل تحتها ، وإلى هذا الرأى ذهب المبرد وجماعة من أهل اللغة .

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣

التفسير

٨١، ٨٢ـ (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أنه تعالى هو الذى أنشأ للكافرين الحواس والأفئدة ، وهو الذى خلقهم وأنهم إليه راجعون للحساب والجزاء ، وأن الإحياء والإماتة من شأنه جل وعلا ، كما له اختلاف الليل والنهار ، وطلب إليهم عقب هذه الآيات أن يتدبروا ويتعقلوا بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وجاءت هاتان الآيتان ومابعدهما لتفيد أنهم لم يعقلوا ولم يتدبروا بل كفروا بالبعث مع وجود هذه البراهين .

والمعنى : لم يعقل هؤلاء المشركون تلك الآيات على إمكان البعث وقدرة الله عليه ، بل قالوا منكرين له مثل ما قاله الكفرة السابقون لرسلهم . قالوا : أئذا متنا وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام بالية نبعث إلى الحياة مرة أخرى ، ثم أعادوا الاستبعاد والاستنكار مرة أخرى فقالوا : أئنا لمبعوثون بعد هذا الفناء ، ثم أكدوا استبعادهم بما حكاه الله عنهم بقوله :

٨٣ـ (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

لقد وعدنا منك يا محمد بالبعث بعد الموت ، ووعد آباؤنا من رسلهم بمثله قبلك ، وما هذا البعث الموعود إلا أسطورة من أكاذيب الأولين نقلتها إلينا عنهم يا محمد ، ونحن نستبعد حصوله ونستنكره بعد أن يتحول الموتى إلى عظام نخرة ، وقد كانت عقيدتهم فى الحياة تتمثل فى قولهم : إن هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ، والواقع أنهم فى عقائدهم مضطربون ، فبينما هم يقولون ذلك يحكى الله عنهم إيمانهم بعظيم قدرة الله بقوله : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] . فإذا كانت عقيدتهم كذلك فى قدرة الله ، فكيف يستبعدون البعث وهو مشاهد لهم كل يوم فى إحياء النبات بعد يبسه ، وفى اليقظه بعد النوم .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦١

(قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، والتذكر : الاعتبار . (مَلَكُوتُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : صيغة الملكوت للمبالغة فى الملك ، فالمراد به الملك العظيم الشامل . (وَهُوَ يُجِيرُ) : وهو يمنع ويحفظ من يشاءُ ممن يشاءُ .

(وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) : ولا يستطيع أحد أن يمنع سواه من بطش الله .

(فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) : فكيف تصرفون عن الهدى .

التفسير

٨٤ـ (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاءِ المنكرين للبعث : من هوخالق الأرض ومالكها والمتصرف فيها وفيمن عليها ؟ إن كان لديكم شيء من العلم والعقل ، فأجيبونى عن هذا السؤال .

وأسلوب الآية ينم عن فرط الاستهانة بعقول هؤلاءِ المشركين ، حيث شكك الله فى وجودها لديهم ، بسبب أنهم لم يحسنوا استخدامها ، فجعلها فى حكم المشكوك فى وجودها بقوله « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

٨٥ـ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : أنهم مع فرط جهالتهم ، وفقدان القدرة على القياس لديهم ، فإنهم سيجيبونك أيها الرسول بأن الأرض ومن فيها لله ، لأنهم لا يجحدون ذلك ، قل لهم حين يجيبونك بذلك : أتقولون هذا ، فلا تعتبرون بأن من فطرها وفطر من عليها ابتداء فهو قادر على إعادتها ثانيا ؟ فإن الإعادة أسهل من الابتداء فى قياس العقول .

٨٦ ، ٨٧ـ (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء الجاهلين : من هو مالك السموات السبع بجزئياتها ومن عليها من كائنات لا يعلمها غيره ، ومن هو مالك العرش العظيم ؟ سيقولون فى إجابتهم : هى لله ، قل لهم : أتقولون ذلك فلا تتقون الله وأنتم تشركون وتنكرون البعث والنشور ، وهما أهون عليه من خلق السموات السبع وخلق العرش العظيم(١) ؟

٨٨ـ (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

اليد هنا كناية عن القدرة والمعنى : قل لهم أيضا مبالغا فى التقرير والإنكار : مَن بقدرته ملك كل شىء وتدبيره ، وهو يمنع من يلوذ به ويحميه من المكاره ، ولا يستطيع أحد أن يجير ويحمى من أراده بسوء؟ إن كنتم تعلمون الجواب عن هذا السؤال فأجيبونى ، ثم تولى الله الجواب عنهم ، لأنهم مقرون به ولا معدل لهم عنه فقال سبحانه :

٨٩ـ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) :

سيقول هؤلاء المشركون : الملك والملكوت لله ، والإجارة والحماية للمستجير لا تكون إلا لله دون سواه ، وإذا كان هذا ماسيقولونه جوابا عن سؤالك ، فكيف يُصْرفُون عن الرشد والهدى كالذين سُحِروا ففقدوا عقولهم ؟

---

(١) العرش فى اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون .

ويلاحظ أن السؤال الثانى : «مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ . . . » والثالث : من بيده ملكوت كل شىء جوابهما (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) بلام الجر ، وكان الظاهر أن يكون الجواب (سيقولون الله) بغير لام مراعاة للسؤال[١] . فما وجه العدول عنه ؟

والجواب : أن كلا الأمرين جائز لغة ، فلو قيل : مَنْ صاحب هذه الدار فلك أن تجيب بقولك : (خالد) مثلا ، مراعاة للفظ السؤال المجرد عن اللام ، ولك أن تقول : (لخالد) باللام مراعاة للمعنى ، ومنه قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف[٢] والقُرى ورَبُّ الجياد الجُرد[٣] قيل لخالد

٩٠ - (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

فى هذه الآية إضراب إبطالى لإنكارهم البعث والتوحيد .

والمعنى : بل جئنا قريشا بالحق فى وحدانية المعبود والبعث من القبور ، وإنهم لكاذبون فى شركهم وإنكارهم لهما «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[٤]

(مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أى : لغلب بعضهم بعضا .

---

(١) فإن السؤال مجرد عن اللام فيهما حيث لم يقل فيه : لمن السموات السبع ، ولا (لمن ملكوت كل شىء) .

(٢) جمع مزلفة ، وهى القرية تكون بين البر والريف .

(٣) الجرد : جمع أجرد ، وهو الجواد الذى يسبق غيره .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) : تنزيها له تعالى عما يلحقونه به من الولد والشريك . (الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : المراد بهما : ما غاب عن خلقه وما أبصروه . (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : فتنزه عن إشراكهم .

التفسير

٩١ـ (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمعنى : ما اتخذ الله لنفسه من ولد ، لتنزهه عن الاحتياج إليه ليعينه أو يرثه من بعده كما هو الشأن فى الولد ، فهو القادر الذى يقول للشىء : كن ، فيكون ، وهو الباقى الذى لايفنى ولا يبيد « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[1] .

وكما أنه تعالى لم يتخذ ولدا فإنه لم يكن معه من إله حين أبدع ملكوته ، ولا يصح عقلا أن يكون له فيه شريك كما زعم الزاعمون ، فلو اشترك معه فى الخلق غيره ، لا ستقل كل إله بما خلقه ، إن فرض استقلاله بخلقه ، ولغالب بعضهم بعضا حتى يغلب قويهم ضعيفهم ويستقل بالكون وحده ، إن فرض اشتراكهم فى الكون تعاونيا ، أو كان لكل منهم ناحية خلقها ، وبما أننا نرى الكون وحدة متكاملة محكمة الصنع ، فلا بدأن يكون مبدعه إلها عظيماً واحداً فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإن التعدد فى الإله يؤدى إلى التنافس والتغالب وينتهى إلى الفساد ، كما قال سبحانه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[2] ولهذا ختم الله الآية بقوله : « سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى : تنزيها كاملا لله عما يزعمونه له من الولد والشريك .

٩٢ ـ (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : أنه تعالى كما تنزه عن الولد وعن الشريك فى خلق هذا الكون وتدبيره ، فهو عالم بكل ما خفى وغاب عن العيون والعقول ، وعالم بكل ما هو مشاهد ومرئى لأولى الأبصار « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[3] وإذا كان

(١) سورة الرحمن ، الآيتان . ٢٦ ، ٢٧ (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩

أمر الإله عظيمًا هكذا فتعالى الله وتنزه عما يشركون معه من آلهة لا حول لها ولا قوة ، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا ، ولا تعلم عن نفسها أو غيرها حاضرًا ولا غائبا .

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾)

المفـردات :

(إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ) : إن كان لابد من أن تريني مايوعدونه من العذاب ، والأصل إن تُريني ، فزيدت ما وأدغمت فى (إن) فصارت : إمَّا ، وأكد الفعل (تُرِيَنِّي) بنون التوكيد بعد إمَّا ، فأصبح الفعل مؤكدًا بلفظ (ما) المدغمة فى (إن) وبنون التوكيد ، وبهذا يعلم أن (ما) فى لفظ (إمَّا) ليست للنفى بل للتوكيد . (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) أى : ادفع أثر السيئة بالخصلة التى هى أحسن ، وسيأتى شرح ذلك .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) : نحن أعلم بالذى يصفونك به ، أو بوصفهم إياك بما ليس فيك[1] . (أَعُوذُ بِكَ) : ألوذ وأعتصم بك .

(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) : جمع همزة ، والهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه المهماز فى رِجْل مَنْ يركب الدابة ، ينخسها به لتسرع ، والمراد بهمزات الشياطين وساوسهم ؛ فإنها تدفع إلى المعاصى .

(١) وبهذا التفسير علم أن لفظ (ما) فى قوله تعالى (بما يصفون) إما موصولة أو مصدرية .

التفسير

٩٣، ٩٤ - (قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

ظاهر الآيتين يدل على أن الله تعالى كان قد أخبر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بعذاب يصيب قومه إن أصروا على كفرهم ، ولم يخبره بوقت نزوله ، فلهذا طلب نجاته منه إن حصل لهم فى حياته ، وهكذا فَهِمَ الْحَسَنُ ، فقد روى أنه قال : أخبر الله نبيه- صلى الله عليه وسلم- بأن له فى أمته نِقْمَةً ، ولم يطلعه على وقتها ، أهو فى حياته أم بعدها ، فأمره بهذا الدعاء :

والمعنى : وقل -أيها النبى- : يارب إن كان لابد أن ترينى ما أوعدت قومى به من العذاب المستأصل إن بقوا على كفرهم ، يارب فلا تجعلنى بين هؤلاء الظالمين حين ينزل بهم عقابك .

ونداءُ النبى لله بوصف الربوبية ، للإيذان بأنه تعالى هو المالك الناظر فى مصالح العباد ، الذى يُلْجَأُ إليه فى دفع الملمات ، وتكليفه -صلى الله عليه وسلم- بأن يدعو ربه بذلك ، مع أنه -صلى الله عليه وسلم- بمنجاة من مثل ذلك العذاب العظيم إن نزل ، للإيذان بفظاعة العذاب الموعود ، وكونه بحيث يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن ينزل به ، وهو متضمن تأكيد وقوع العذاب الموعود الذى أنكروه وسخروا منه واستعجلوه . وهذا الوعد مشروط ببقائهم على كفرهم .

وقيل : إنه -صلى الله عليه وسلم- أُمر بذلك هضمًا لنفسه وإظهارًا لكمال العبودية ، أو لأن شؤم الكفرة قد يحيق بغيرهم ، كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً » والتعبير بقوله : « فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » بدلًا من أن يقول : فلا تجعلنى فيهم ، للإيذان بأن ظلمهم هو السبب فى وعيدهم بالعذاب ، وتكرار لفظ (رب) لمزيد الضراعة والاستنجاد بمن بيده الأمر كله .

٩٥ - (وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) :

أى : وإنا على تمكينك من رؤية عذابهم الموعود لقادرون ، كما قدرنا على مثله فيمن سبقهم من المعاندين لرسلهم .

وهذه الآية تشير إلى أن التعجيل بالعذاب ليس من الحكمة التى تقترن بها أفعال الله تعالى فلقد علم سبحانه أزلًا أن معظمهم سوف يؤمن ، فلهذا تأنى بهم ولم يتعجل بعقوبتهم .

والظاهر أن هذه الآية واللتين قبلها نزلتا قبل أن يخبر الله تعالى نبيه بقوله : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (١) .

٩٦ـ (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) :

أى : قابل السيئة التى تأتيك من قومك وامنع أثرها عن نفسك بالخصلة التى هى أحسن من مقابلة السيئة بمثلها ، والدفع بالتى هى أحسن على ثلاث درجات ، أدناها أن تصفح عن سيئته ، وفوقها أن تحسن إليه إحسانًا ما ، وأعلاها أن تجزل الإحسان إليه .

وأَمْرُ الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- بذلك توكيدٌ لما هو ملتزم به من هذا الخلق الكريم مع المؤمنين فقد كان يقابل السيئة بالحسنة ، وكان يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

والخطاب فى الآية وإن كان موجهًا إلى الرسول حسبما يؤذن به السياق ، فإن الحكم فيه يعم كل مسلم ، فينبغى أن لا يقابل السيئة بمثلها ، حتى لا يتمادى المسئ فى إساءته ، فيعظم البلاء وتحدث الفتن ، فإن معظم النار من أعظم الشرر ، وفى عموم معناها أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن أنس أنه قال : (يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لى) والدفع المذكور مطلوب ما لم يؤد إلى ثلم الدين أو خدش المروءة .

وفى ختام الآية يقول سبحانه : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى : نحن أكثر علما منك بما يصفونك به فى السر والعلانية ، من الأوصاف التى يُكَذِّبُهَا ما أنت عليه من الكمال الخلقى والصدق فى تبليغهم أحكام ربهم ، وفى هذه الجملة وعيد لهؤلاء المتقولين على الرسول بالعقوبة ، وتسلية له -صلى الله عليه وسلم- وإرشاد له إلى تفويض الأمر له عز وجل ، والآية من قبيل الموادعة والمهادنة ، حتى يشتد جانب النبى -صلى الله عليه وسلم- ، فيقاتلهم حتى يهتدوا إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٣

٩٧ ، ٩٨ - (وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) :

بعد أن أمر الله نبيه بدفع السيئة بالحسنة ، أمره أن يعوذ به من وساوس الشياطين ، ليكون ذلك معينًا له على دفع السيئة بالحسنة ، ونحن فى كلا الأمرين مكلفون بالعمل بما أمر الله به رسوله فيهما .

والاستعاذة بالله والاعتصام به من الشياطين أمر ينبغى الحرص عليه عند الشروع فى كل عمل صالح للفرد أو للمجتمع ، فإن الشياطين من الجن والإنس أعداءٌ للخير ، فهم لذلك يحرصون على الصد عنه بوساوسهم وإغراءاتهم المضللة للنفس البشرية ، فهم يزينون لها الباطل ، وينفرونها من الحق بأساليب مزوقة وملفقة قد تخفى على التقى الورع ، ولا عاصم من خداعهم إلّا الله رب العالمين ، فلهذا أمرنا سبحانه بالاستعاذة به من وساوسهم .

والمعنى : وقل - أيها المسلم - عند الشروع فى أمر نافع لك أو لمجتمعك : يارب أعوذ بك وأعتصم بربوبيتك من وساوس الشياطين الصارفة عن البر والخير ، وأعوذ بك وأعتصم بحمايتك من حضورهم حولى فى أى حال من أحوالى الدنيوية أو الأخروية ، لأسلم من شرورهم ومغرياتهم الكاذبة : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »[1] .

ومِنْ أجدر الأحوال بالاستعاذة بالله من الشياطين حالُ الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل ، وعند النوم ، لأنهم ينشطون فيها أكثر من سواها .

وفى الاستعاذة عند النوم : أخرج الإمام أحمد بسنده عن جَدِّ عَمْرو بن شعيب قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه سلم - يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم - من الفزع - : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ورواه كذلك أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه .

وفى الأمر بالتعوذ من حضور الشياطين بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة فى التحذير من ملابستهم .

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفـردات :

(فِيمَا تَرَكْتُ) : فى دنياى التى تركتها أو فى مالى أو فى إيمانى . (كَلَّا) : كلمة تستعمل للردع والزجر . (وَمِن وَرَآئِهِمْ) أى : أمامهم ، ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ » أى : أمامهم ، وقد يستعمل بمعنى الخلف ، فهو كما قال صاحب المختار : من الأضداد ، ويبنى على الضم إذا لم تضفه ، كقولك : جئتك من وراءُ ، كقولك : من قبلُ ومن بعدُ[1] (بَرْزَخٌ) : حاجز .

التفسـير

٩٩ ، ١٠٠ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

(حَتَّى) هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما قبلها ، ولهذا يقول النحاة عنها : إنها لابتداءِ الغاية ، وقد مضى أن المشركين أنكروا البعث وتوحيد الله حتى قالوا فيهما : أساطير الأولين ، ثم احتج الله عليهم وذكرهم قدرته على كل شىء ، وأنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » وأمر نبيه أن يستعيذ به من عذابهم الموعود على كفرهم ، وطلب إليه أن يدفع سيئتهم بالحسنة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن من أَصَرَّ منهم على الكفر حتى يحضره الموت ؛ طلب الرجوع إلى الحياة ليصلح ما أفسده .

---

(١) انظر المختار .

والمعنى : أن المشركين لا يزدادون بالوعظ والتذكير إلّا إصرارًا على الكفر حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقن ضلاله حين يرى الملائكة تقبض روحه بعنف وشدة وأدرك حينئذ سوء عاقبته ، فيقول فيما بينه وبين الله تعالى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ثانية إلى الحياة الدنيا لكى أعمل صالحًا فى دنياى التى تركتها وليس لى فيها عمل صالح ينفعنى فى أُخراى ، فيقال له : كلاّ لا سبيل لك إلى الرجوع إليها بعد أن حانت منيتك ، ثم يقول الله مؤكدًا تمنيه الرجوع إلى الدنيا ، واستحالة رجوعه بقوله : « إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : إن قوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ » كلمة هو قائلها لا محالة حين يعاين الموت وسوء المنقلب ، لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا حيث يبقون فى قبورهم إلى يوم القيامة ، حين يبعثون منها للحساب والجزاء ، والمقصود من حضور الموت حضور أماراته ، ومنها حضور الملائكة لقبض روحه بشدة كما قال تعالى فى وصف هذه الحالة : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ »[1] . وكلامهم مع الله بصيغة الجمع فى قولهم : (رَبِّ ارْجِعُونِ) للتعظيم ، وهو أُسلوب المسترحمين كما قال الشاعر :

فقلت ارحمونى يا إلٰه محمد فإن لم أكن أهلًا فأنت له أهل

ولفظ (لعل) يستعمل للتعليل وللرجاء ، وكلاهما تصح إرادته فى قول الكافر المحتضر (لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) أى : لكى أعمل صالحًا ، أو رجاء أن أعمل صالحًا ، والمراد من البرزخ هنا : الحاجز ، وهو إرادة الله أن لا عودة للحياة إلّا يوم القيامة ، ثم بين الله أحوال القيامة فقال :

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٥٠

(فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : يطلق على البوق فيكون مفردًا ، ويطلق على الصُّوَر - بفتح الواو - فيكون جمعًا لصورة ، مثل بُسْر وبُسْرَة ، وسيأتى مزيد بيان لذلك فى التفسير .

(فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ) : أى فلا تنفعهم الأنساب وهى القرابات .

(وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) : ولا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله .

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ) : أى فمن رجحت موزوناته من الأعمال الصالحة .

(تَلْفَحُ) : تحرق . (كَٰلِحُونَ) : شفاهُهُم متقلصة عن أسنانهم .

التفسير

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) :

المراد من النفخ فى الصور هنا النفخة الثانية التى يبعث عندها الخلائق للحساب والجزاء ، والصور : إما البوق ، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وإما الأجساد جمع صورة كبُسْر جمع بسرة ، والنفخ فيها كناية عن إطلاق الأرواح لتلحق بأجسادها ، ويؤيد المعنى الثانى قراءة ابن عباس وغيره (فِى الصُّوَر) بواو مفتوحة ، وهى بلا شك جمع صُورَة ، والتوفيق

بين القراءتين بهذا المعنى أولى من حمله على البوق ، قال الآلوسى : ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القَرْنِ الذى جاء به الخبر ودلت عليه آيات أُخَر ، وبين النفخ فى الصُّوَر جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك : اهـ

ومعنى الآية : فإذا نفخ فى صُوَر الخلائق ، بأن أُلحقت كل روح بجسدها عند قيام الساعة ، فبعث الخلائق وحشروا من قبورهم إلى ساحة القضاء الإلٰهى ، ليقضى لهم أو عليهم تبعًا لعقائدهم وأعمالهم ، فلا تنفعهم قراباتهم حينئذ كما كانت تنفعهم فى دنياهم ، ففى ذلك اليوم : « يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[١]

وحكى عن الجُبَّائى : أن المراد من الآية أنه لا يفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها فى الدنيا ، وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال[٢] ، وكما أنهم لا تنفعهم أنسابهم ولا يفتخرون بها ، فكذلك هم لا يتساءلون عن أحوالهم ، فلا ترى أحدًا منهم يهتم بغيره فيسأله عن حاله ، لأن حال كل منهم واضح لغيره ، ولأن الخطب جسيم يشغل كل امرئ عن سواه ، وقد صور الله هول ذلك اليوم أوضح تصوير بقوله فى صدر سورة الحج : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » .

فإن قيل : إنه جاء فى القرآن أن الكفار يتساءلون يوم القيامة ، كما جاء عنهم فى سورة الصافات فى قوله سبحانه وتعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[٣] والجواب : أنهم لا يتساءلون فى بعض المواطن ، ويتساءلون فى بعض آخر ولعله عند جهنم ، وقد يقال : إن المنفى هنا هو سؤال التعارف ونحوه ، مما عليه دفع مضرة أو جلب منفعة ، أما المثبت فهو تساؤلهم

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ – ٣٧ .

(٢) نقله الآلوسى عنه ، وأصله لابن عباس : انظر القرطبى .

(٣) الآيات : ٢٢ – ٢٧

مع خصمائهم الذين دفعوهم إلى الكفر ، وقد بينه الله تعالى بقوله : « قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . . . » الآيات[١] .

ثم بين الله دستوره فى القضاء بين عباده يوم القيامة فقال :

١٠٢ ـ (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[٢] فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى : فمن رجحت أعماله القلبية والظاهرة ، وكان لها وزن وقدر عند الله تعالى ، بأن كانت عقيدته صالحة ، وأعماله مستقيمة ، فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

١٠٣ ـ (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) :

ومن لم يكن لعقائده وأعماله وزن من الكفار ، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون فى جهنم لا يبرحونها أبدًا ، وفى مثل معنى الآية يقول سبحانه : « أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا »[٣] .

١٠٤ ـ (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) :

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن العذاب بالنار عام لأجسادهم ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها ، وأزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار .

١٠٥ ـ (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

يقال لهم حينما يعذبون بالنار ـ يقال لهم ـ على سبيل التوبيخ والتحسير : ألم تكن آياتى يتلوها عليكم رسولى فى دنياكم ، فكنتم بها تكذبون فور تبليغها إليكم ، من غير تدبر فى عاقبة تكذيبكم ؟.

---

(١) سورة الصافات ، الآيات من : ٢٨ — ٣٠

(٢) موازين : جمع موزون ، والمراد بها أعمال العبد.

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١٠٥

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(شِقْوَتُنَا) : الشقوة والشقاوة ؛ ضد السعادة ، والمراد أسبابها من الأهواء وسوء الاختيار .

(اخْسَئُوا فِيهَا) : أى انزجروا واسكتوا عن هذا المطلب سكوت ذلة وهوان وقنوط

(سِخْرِيًّا) : السِّخْرىّ والسُّخرية ؛ الاستهزاءُ .

التفسير

١٠٦ - (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) :

فى الآية السابقة يوبخ الله أهل النار على تكذيبهم بآياته ، ويلومهم على تسببهم بذلك فيما هم فيه تحسيرًا لهم ، وفى هذه الآية يحكى الله جوابهم الذى سوف يجيبون به ربهم ، وعُبِّر عنه بصيغة الماضى لتحقق وقوعه .

والمعنى : قال الكفار مجيبين الله تعالى : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعاتنا وسوءُ اختيارنا ، وسوءُ الظن برسلنا فكذبنا بآياتك فى دنيانا ، فشقينا بذلك فى أخرانا ، وكنا بما فعلناه قومًا ضالين عن سبيل السعادة التى حصل عليها المؤمنون ، ثم تمنوا العودة إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا فقالوا :

١٠٧ ـ (رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) :

ربنا أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى تكذيب آياتك والكفر برسلك وارتكاب المعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم .

١٠٨ ـ (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) :

قال الله إقناطًا لهم وإذلالًا : انزجروا فى النار مطرودين من رحمتنا طرد الكلاب ، ولا تكلمون بعد فى شأن خروجكم منها ، فأنتم فيها خالدون .

وقد جاء فى الأثر أنهم بعد أن يقول الله لهم ذلك لا ينبسون بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم ، ثم عقب الله زجرهم عن الكلام ببيان سببه بقوله :

١٠٩ ـ (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

هذه الآية مستأنفة لتعليل نهيهم عن التماسهم الرجعة إلى الدنيا .

والمعنى : اسكتوا عن دعائى ملتمسين الرجعة إلى الدنيا ، لأنه كان جماعة من عبادى المؤمنين يقولون : ربنا آمنا بما أنزلته على رسلك ، فاغفر لنا سيئاتنا ، وارحمنا بغفرانك وحسن ثوابك ؛ فأنت أرحم الراحمين وخيرهم أجمعين ، فلم يرضكم ذلك منهم .

١١٠ ـ (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) :

أى : أنكم لم تكتفوا بكفركم . فاتخذتم هؤلاء المؤمنين المستغفرين المسترحمين هدفًا لسخريتكم ، تشفيًا منهم واستهزاءً بهم ، وواظبتم على ذلك حتى أنسوكم تذكرى والتخوف من عقابى ؛ فاشتغلتم بإهانتهم عن النظر فى عاقبتها وسوء جزائها عندى ، وكنتم منهم تضحكون مبالغة فى السخرية بهم .

١١١ ـ (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

فى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أجر المؤمنين الصابرين . وانتقامهم بإيذاء الكافرين لهم .

والمعنى : إنى جزيت المؤمنين اليوم فى الآخرة ، بسبب صبرهم على إيذاء الكافرين وسخريتهم – جزيتهم – بأنهم هم الفائزون بنعيم الجنة دون المستهزئين ، الذين أذللتهم فى نار الجحيم ، ولنعم عقبى الصابرين .

وقد بين الله فى سورة المطففين ، أن المؤمنين يثأرون لأنفسهم فى الجنة ، فقال سبحانه : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] :

أى : هل جوزى الكفار على استهزائهم بالمؤمنين فى الدنيا ، بِضحِك المؤمنين استهزاءً بهم وهم على الأرائك فى الجنة ينظرونهم يتقلبون فى نار جهنم .

(قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) : ما لبثتم فى الأرض إلا زمنًا قليلًا .

(عَبَثًا) العبث : ما لا فائدة فيه أصلًا ، أو له فائدة لا يعتد بها .

التفسير

١١٢ – (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) :

هذه الآية تحكى أن الله تعالى يسأل أهل النار عما لبثوه فى الدنيا ، بعد أن طلبوا منه العودة إليها ليصلحوا ما أفسدوه ، وأنه زجرهم عن هذا الطلب ونهاهم عن الكلام فيه ، فقد فات أوان العمل وحان وقت الجزاء ، والسؤال موجه من الله إلى أهل النار ، إما مباشرة ، وإما على لسان ملك كلفه الله به .

(١) الآيات : ٣٤ – ٣٦

والمقصود منه : توبيخهم على طول أملهم فى الدنيا ، واغترارهم بنعيمها وهم فيها ، مع أنها إلى زوال ، واللبث فيها قليل ، وتحسيرُهم وتنديمُهمْ على كفرهم بالآخرة ، مع أنها - دار الخلود .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التى لبثتموها فى الأرض ، واغتررتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها وعدم العودة إلينا لحسابكم وجزائكم على ما كان منكم ؟ ولما كانت مواعيد الرسل لهم بالآخرة وبقائها قد تحققت لهم معاينة بعد البعث ، فقد عرفوا أن لبثهم فى الدنيا كان قليلًا بالنسبة إليه فى الآخرة ، فلهذا أجابوا ربهم قائلين :

١١٣ - (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَآدِّينَ) :

أى : لبثنا زمنًا قليلًا نتخيَّلُه يومًا واحدًا أو بعض يوم ، فاسأل القادرين على العدِّ من الملائكة الحاسبين لأعمال العباد وأعمارهم ، فهم أعلم منا بذلك ، وأقدر منا على الإجابة ، فلقد دهتنا الدواهى التى نراها فى الآخرة ، فأنستنا الزمن الذى مكثناه فى نعيم الدنيا ، وأصبحنا لا نراه أكثر من يوم أو بعض يوم ، بالنسبة لما نحن مقبلون عليه من خلود فى شقاءٍ وعذاب ، ولقد صدقهم الله فيما أجابوا به عن قلة مكثهم فى الدنيا فيما حكاه بقوله :

١١٤ - (قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] :

قال الله ردًّا على أهل النار : ما لبثتم فى الدنيا ونعيمها إلَّا زمنًا قليلًا كما قلتم اليوم ، لو أنكم فى دنياكم كنتم من أهل العلم والتَّدَبُّر ، لأدركتم فيها ما أدركتموه اليوم ، من أن زمن الدنيا قصير ونهايته قريبة ، وزمن الآخرة طويل بغير نهاية ، ولعملتم بمقتضى هذا العلم ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار .

أخرج ابن أبى حاتم بسنده إلى رسول الله - صلى‌الله‌عليه‌وسلم - أنه قال : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، قال : لَنِعْمَ ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ،

(١) فى مثل معنى هذه الآية فى استقلالهم لمدة لبثهم فى الدنيا ، قوله تعالى فى آخر سورة النازعات : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، فيقول : بئس ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين » .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(فَتَعَالَى اللَّهُ) : ترفَّع الله بذاته وتنزه . (الْمَلِكُ الْحَقُّ) : المالك الثابت الملك دون سواه . (الْعَرْشِ) العرش في اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون ، وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته ، دون أن يكون الله فيه لاستحالة أن يكون لله مكان ، انظر تفسيرنا لقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » في سورة الأعراف . (الْكَرِيمِ) : الشريف .

التفسير

١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية من تمام ردّ الله على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم فظننتم أنما خلقناكم عبثا دون حكمة في خلقكم ، فلم تفكروا في خالقكم ، ولا في حكمة خلقكم ، ولا فيما يكون بعد موتكم ، فلهذا أشركتم بنا وكذبتم برسلنا ، واعتقدتم أنكم لاتبعثون بعد الموت لترجعوا إلى حسابنا وجزائنا ، كلا ليس الأمر كما زعمتم ، فإن خلقكم عبثا لا يليق بربوبيتنا .

١١٦ ـ (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

أى : فتنزه الله بذاته عن خُلُوِّ أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة ، فهو الملك الحق الثابت له الملك عن جدارة واستحقاق ، الواحد الذى لا معبود بحق إلا هو مالك العرش العظيم فى مكانته وشرفه ، ومن كان كذلك فلا يصح عقلا أن يخلقكم عبثا ، ولا أنكم إليه لا ترجعون للحساب والجزاء كما زعمتم .

والمراد من وصف العرش بالكريم أنه عظيم الشرف ، وكل ما شرف وعظم فى بابه يوصف بالكريم ، ومنه قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »[١] وقوله : « وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا »[٢]

١١٧ ـ (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه سبحانه هو الملك الحق دون سواه فكل الملوك عبيده المسخَّرون منه لخدمة شعوبهم ، ولا مُلْكَ لهم فى الحقيقة فيما مكَّنهم الله منه ، كما بين أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه رب العرش العظيم ، ومن هذا شأنه فلا يصح أن يعبد سواه وجاءت هذه الآية لتؤكد ما أفادته التى قبلها ضِمْنًا من فساد عبادة سواه ، ولتبين سوء عاقبة من يعبد غيره تعالى .

والمعنى : من يعبد مخلوقا من مخلوقات الله يزعمه إلَها آخر ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيته وصحة عبادته ـ من يعبده مع الله أو يفرده بالعبادة ـ فما حسابه وعقابه الشديد إلا عند الله ربه وخالقه ومالكه ، إنه لا يفوز ولا ينجو من عقابه الكافرون العابدون لسواه ، أو المشركون له مع الله .

نقل الإمام ابن كثير عن قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لرجل : ما تعبد ؟ قال : أعبد الله وكذا وكذا ـ حتى عَدَّ أصناما ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٢٣

فأَيُّهم إذا أَصابك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك ، قال : اللهُ عز وجل ، قال : فأَيُّهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أَعطاكها ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فما يحملك على أَن تعبد هؤلاء معه؟ قال : أَردت شكره بعبادة هؤلاء معه ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (تعلمون ولا يعلمون) قال الرجل بعد ما أَسلم :(لقيت رجُلا خَصَمَنى)[1] أَى : غلبنى فى الخصومة والمقصود من قوله — صلى الله عليه وسلم — (تعلمون ولا يعلمون) أَن هذه المعبودات لا عقل لها ولا علم وأَنتم أَيها العابدون أَفضل منها بالعقل والعلم ، فكيف تعبدون مَنْ دونكم .

١١٨ — (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

الأَمر هنا موجه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وإلى أُمته تبعًا له ، فهو إمامهم ، وطَلَبُ النبى — صلى الله عليه وسلم — الغفران من ربه لنفسه ، إنما هو من باب هضم النفس ، واتهامها بالتقصير فى الطاعة مع الله ، وليس المقصود أَن يغفر له ذنبًا حدث منه ، فإنه — صلى الله عليه وسلم — معصوم من الذنوب .

والمعنى : وقل — أَيها النبى أَنت وأُمتك — : يارب اغفر لنا تقصيرنا فى طاعتك ، واشملنا برحمتك الدنيوية والأُخروية ، وأَنت خير الراحمين ، لأَن رحمتك وسعت كل شىءٍ .

وقد علَّم النبى — صلى الله عليه وسلم — أَبا بكر الصديق — رضى الله عنه — أَن يقول نحوه فى صلاته ، فقد أَخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أَبى بكر — رضى الله عنه — أَنه قال : يا رسول الله علمنى دعاءً أَدعو به فى صلاتى ؟ قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، وإنه لايغفر الذنوب إلَّا أَنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أَنت الغفور الرحيم » .

(١) انظر تفسير ابن كثير آخر سورة (المؤمنون)

سـورة النور

هذه السورة مدنية ، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، وآياتها أربع وستون ، وجاءت تالية لسورة (المؤمنون) لتشرح ماينبغى أن يكونوا عليه من الآداب الإسلامية الفاضلة ، ولأنه لما ذكر فى سورة (المؤمنون) أن حفظ الفروج من مميزاتهم وصفاتهم الأساسية ، وأنها من أسباب فلاحهم فى الدارين ، ناسب أن تكون السورة التى تليها متضمنة أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى ، وما يتصل بذلك من أحكام القذف للأعراض البريئة ، ووجوب غضّ البصر الذى هو داعية الزنى ، ووجوب الاستئذان صيانة لكرامة البيوت وأعراض أهلها ، والأمر بالنكاح حفظا للفروج ، والنهى عن إكراه الفتيات على الزنى ، إلى غير ذلك من الآداب ، وبما أن سورة النور تضمنتْها ، فكانت لذلك جديرة بأن تكون تالية لها .

ما جاء فى فضلها :

رُوِى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارثة بن مَضْرِب قال : (كتب إلينا عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

مقاصـدها :

تضمنت هذه السورة وجوب جلد الزانية والزانى وأن لا تأخذنابهما رأفة ؛ حماية لأعراض المسلمين ، وأن رمى المحصنات بالزنى يقتضى الجلد ثمانين جلدة ، وأن لا تقبل لمن يرميهن شهادة أبدا وأن يظلوا متصفين بالفسق ، ما لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهداء عدول على واقعة الزنى التى ادعوها ، كما تضمنت أن الذى يرمى زوجته بالزنى ، ولا يجد شهوداً أربعة ، يتخلص باللعان من حد قذفها ، فإذا لاعن عُوقبت[1] زوجتُهُ على زناها ؛ ويَدْرَأ عنها العقاب أن تلاعن بعد لعانه .

(١) سيأتى الكلام على عقابها فى موضعه .

وتحدثت عن قصة الإفك التى زعمها المنافقون فى حق أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وبينت أنها بريئة مما زعمه الآفكون فى حقها ، وأنهم عند الله هم الكاذبون ، وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، وأن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، وجاء فيها : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) ونهت عن دخول الإنسان بيتاً غير بيته حتى يستأذن ويسلم على أهله ، فإن لم يجد فيه أحداً يستأذنه فلا يدخله ، وأن عليه أن يرجع إن لم يؤذن له بالدخول .

وأمرت المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وحثت المؤمنات على إخفاء زينتهن إلا ما ظهر منها ، وأجازت إظهارها للأزواج ولأصناف تؤمن مغبتهم كالآباء والإخوة وآباء الأزواج ، والأطفال غير المميزين ، ونهت عن ضربهن الأرض بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن كالخلخال ، وحثت على إنكاح الأيامى والصالحين من العبيد والإماء ، حماية لأخلاقهم ، وأمرت من لا يستطيع نفقات الزواج بالاستعفاف حتى يغنيه الله من فضله ، وحثت على مكاتبة الأرقاء ، ومساعدتهم بالمال ليتحرروا من الرق ، كما نهت عن إكراه الفتيات على البغاء ، وبينت أنه تعالى نور السموات والأرض ، فهو الذى خلقهما وخلق النور فيهما ، ومثلت نور آياته وبراهين هدايته فى قلوب المؤمنين بمشكاة وضع فيها مصباح ، أى : سراج منير ، وهذا السراج فى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر ، كأنه كوكب مضئ متلألئ ، ثم قال الله سبحانه : « يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ » من عباده ، فيوفقه إلى إصابة الحق : « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » تقريباً لأفهامهم : « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وبينت أن لله تعالى بيوتاً ومعابد : « أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ » وأنه سيجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، وأن أعمال البر من الكفار لا تنجيهم من النار بسبب كفرهم ، فهى « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » ، « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » .

وتحدثت عن تسبيح كل من في السموات والأرض لله ، وأنه تعالى يعلم صلاتهم وتسبيحهم ، وعن قدرته سبحانه وتعالى على أن ينشىء السحاب ويزجيه ثم يجعله ركامًا بعضه فوق بعض ، وأن المطر يخرج من خلاله ، وأن السحاب على هيئة جبال ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وأنه تعالى ينزل منه بَرَدًا - أى ثلْجًا - كما يُنْزِل منه المطرَ وأن ضوء برق السحاب يكاد يخطف الأبصار بسرعته ، وأنه تعالى خلق كل دابة تدب على الأرض - خلقها - من ماءٍ خاص بتلك الدابة ، وجعل هذه الدواب أنواعًا تبعًا لاختلاف مائها وأصلها : « فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ » وأنه تعالى يخلق مايشاءُ وهو على كل شيءٍ قدير ، ثم ذكرت أحوال المنافقين ورياءهم ، وميلهم إلى تحكيم رؤساء اليهود فى خلافهم مع بعض اليهود ، بغير حق ليجاملوهم بالقضاء لصالحهم ضد مواطنيهم ، لتركهم تحكيم رسولهم ، وإذا كان لهم الحق جاءُوا إلى الرسول مذعنين ، فهم ليسوا طلاب حق ، بل هم ظالمون .

ووَصَفتْ صورة أُخرى من ريائهم ، وهى أنهم كانوا يُقْسِمُون أن الرسول لو دعاهم إلى الجهاد معه لخرجوا ، فكذبهم الله وقال : « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » وأمرهم أن يطيعوا الله ورسوله بإخلاص حتى يهتدوا ، وبين لهم أنه ما على الرسول إلّا البلاغ ، وقد فعل .

ثم تحدثت عن وعد كريم من الله للمؤمنين الصالحين ، وهو أنه سيستخلفهم فى الأرض ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا ، ما داموا قائمين بطاعته .

ثم ذكرت الأوقات التى يتحتم فيها الاستئذان من العبيد والإماء والمميزين الذين لم يبلغوا الحلمَ من الأحرار ، وأول هذه الأوقات : ما قبل الفجر ، وثانيها : نصف النهار حيث القيلولة والراحة بعد صلاة الظهر ، وثالثها : بعد صلاة العشاء ، أمَّا ما عداها من الأوقات فيباح لهم عدم الاستئذان فيها للحاجة إليهم فى قضاء المصالح ، وعدم وجود عورات يخشى منها فى غير هذه الأوقات .

فإذا بلغ الأطفال الأحرار الحُلم فقد أصبحوا رجالا ، فعليهم الاستئذان فى كل الأوقات كما استأذن الذين ذكروا قبلهم فى قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » .

ثم ذكرت أن القواعد من النساء المتقدمات فى السن اللاتى لا يطمعن فى نكاح ، يباح لهنّ وضع الملابس الظاهرة كالملحفة[1] ، غير قاصدات إظهار الزينة التى تحتها ، وبينت أن الاستعفاف بعدم التخلى عن الثياب الظاهرة خير لهن ، وبينت أنه ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج فى ترك الجهاد وما يطلب من الأصحاء ، كما ذكرت البيوت التى يباح الأكل فيها دون استئذان ، وهى بيوت الأقارب والأصدقاء ، وذلك بعد إلقاء السلام عليهم وتحيتهم ، فكأن السلام على هؤلاء الأحباب بمنزلة الاستئذان منهم ، ثم نَهَتْ عن ترك المسلم مجلس رسول الله المعقود لأمر جامع ، كالجهاد والتدبير للحرب والجمعة والعيدين ، إلّا أن يستأذنوه لبعض شأنهم فيأذن لهم ، وحذّرت المتسللين المخالفين عن أمره أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم ، إلى غير ذلك من المقاصد التى سنفصلها فى شرح الآيات بمشيئة الله تعالى .

(١) أى : ترك لبسها .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(سُورَةٌ) :من معانيها فى اللغة : المنزلة الشريفة[1] . وقد أُطلقت على سور القرآن ؛ لعظيم شرفها . (فَرَضْنَاهَا) : أى أوجبنا العمل بأحكامها ، وأصل الفرض : القطع ، أى جعلناها مقطوعًا بها ، لا سبيل إلى الفكاك من الالتزام بها ، ومنه فرائض الميراث والنفقة . (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : لكى تعتبروا . (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) : وصفان من الزنى ، وهو وطء الرجل امرأة فى فرجها من غير عقد أو ملك يجيز له وطأها . (فَاجْلِدُوا) : الجلد : إصابة الجِلْد بما يؤلمه ، وسيأتى بيانه فى التفسير . (لَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) : لا تمنعكم عن إقامة حد الجلد عليهما شفقة فى شرع الله وحكمه . (طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : جماعة تحف بهم ليعتبروا ، ووصفهم بطائفة لا يقصد منه أن يطوفوا ويحلقوا بالمجلود عند جلده ،

---

(١) وفى هذا المعنى يقول النابغة الذبيانى فى قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى : أعطاك منزلة شريفة رفيعة بين الملوك .

بل مجرد اجتماعهم حينئذ كاف ، والوصف بالطائفة لبيان الشأن فيهم .

(الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) أى : شأن الزانى أنه لا يرضى بالإثم معه إلّا خبيثة مثله من الزوانى والمشركات ، دون العفائف المحصنات ، وكذا الأمر فى الزانية لا يرضى بالإثم معها إلّا خبيث مثلها من الزناة والمشركين ، دون الأتقياء الصالحين ، وسيأتى للآية معنى آخر فى موضعها .

التفسير

١ - (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : سورة عظيمة أنزلناها إليكم أيها المسلمون ، وفرضنا ما فيها من الأحكام عليكم لتنفذوها وتعملوا بها ، وأنزلنا فيها آيات واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام والآداب ، فليس فيها مشكلات أو مشتبهات تحتاج إلى التأويل ، لعلكم تتذكرون وتتعظون بما جاء فيها من الأحكام الشرعية والأخلاق الاجتماعية ، لتكونوا جديرين بكونكم خير أمة أخرجت للناس ، وعبر بقوله : « وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » مع كونه غير محتاج إليه فى أصل المعنى لشمول إنزال السورة لكل آياتها - عبر به - لإبراز كمال العناية بشأن إنزال تلك الآيات الدالة على المثل العليا من الأحكام والآداب ، فلهذا تكرر لفظ (أنزلنا) .

وللإمام الرازى رأى لطيف فى حكمة هذا التكرار ، فقد قال : إن الله تعالى ذكر فى أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود ، وفى آخرها دلائل التوحيد ، فقوله تعالى : « وَفَرَضْنَاهَا » إشارة إلى الأحكام المبينة أولا ، وقوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » إشارة إلى ما بين من آيات التوحيد ، ولهذا ختم الآية بقوله : « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكروها : ا هـ

يقصد أن التذكر هنا بمعنى : الاعتبار بآيات التوحيد ، لا تذكر آيات الأحكام لأنها لم تكن معلومة حين نزول هذه الآية حتى يتذكروها .

٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) :

كان الزنى معروفا فى الجاهلية بما عرف به فى الإسلام ، فهو فى لغة العرب وطء الرجل امرأة لا يحل له وطؤها ، والذى استحدث فى الإسلام هو بيان فحشه ، وفرض الحد على

من يمارسه من الرجال والنساء وقد ذكرت أحكامه فى سورتى النساء والنور ، وفى السُّنَّة النبوية الصحيحة ، ولشيوع الزنى فى الجاهلية فى الحرائر والإماء ، تدرج الإسلام فى عقوبة الزناة ، فبدأ بالحبس ، وَثَنَّى بالإيذاء بغير تحديد ، ثم بجلد غير المحصن مائة جلدة ، ورجم المحصن .

فأما الحبس فكان للنساء خاصة متزوجات أو أبكارًا ، وذلك بعد ثبوت الزنى عليهن بشهادة أربعة شهود ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : « وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا »[1] وكان حبس المرأة فى البيوت قبل أن تستحدث السجون ، فلما استحدثت كُنَّ يُحْبَسْنَ فيها ؛ روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن جبير أنه قال : (كانت المرأة أول الإسلام إذا شهد عليها أربعة من المسلمين عدول بالزنى حبست فى السجن ، فإن كان لها زوج أخذ المهر منها ، ولكن ينفق عليها من غير طلاق وليس عليها حد ولا يجامعها) : ا هـ

وأما الإيذاء فكان للزناة من الرجال جميعا ، وأشار إلى محصنيهم وغير محصنيهم بالتثنية ، فيكون الإيذاء لهم دون النساء ، ويشهد لذلك قوله فى الآية : « واللذان يأتيانها منكم » أى منكم أيها الرجال وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقيل إن الإيذاء كان للزناة من الرجال والنساء محصنين أوغير محصنين ، قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعًا ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب ليصرف على أهله ولا يوجد نص يدل على أن الحكم بإيذائهما كان معاصرًا للحكم بحبس المرأة ، أو أنه تأخر عنه فكان مرحلة ثانية لعقاب الزناة – وهو الظاهر – ، ولم يُحدّد الإيذاء فى الآية ، إذ يقول سبحانه : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا » ولهذا قال بعض العلماء : إنه كان بالتوبيخ والتعيير[2] ، ومنهم مَنْ قال : هو النيل باللسان والإيذاءُ بنحو اليد والنعل .

والمرحلة الثالثة : هى الحد ، وهو نوعان (أحدهما) أن يجلد كل من الزانى والزانية

---

(١) ويدل على تخصيص الحبس بالنساء قوله « من نسائكم » وممن قال بتخصيصه بهن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

(٢) فيقال لهما : فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

مائة جلدة ، وهو ما جاء فى سورة النور ، وهو خاص بمن لم يسبق له زواج منهما . (وثانيهما) أن يرجما إن سبق لهما الزواج ، ويطلق على النوع الأول من الزناة (غير محصن) وعلى الثانى (محصن) وسنبين أدلة الرجم حين الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

والجلد فى اللغة : ضرب الجِلْدِ ، وفيه إشارة إلى أن من يقوم بعقاب الزانى لا يبالغ فيتجاوز الجلد إلى الإضرار باللحم ، ويقول الآلوسى ما خلاصته : إن الزانية والزانى يجلدان بسوط لا عقدة فيه ولا فرع له كما دلت عليه الأخبار ، والجلد بالسوط كان فى عهد عمر رضى الله عنه ، وبإجماع الصحابة ، وأما قبله فكان تارة باليد ، وتارة بالنعل ، وتارة بالجريدة الرطبة وتارة بالعصا . . هكذا قال الآلوسى ، وسُمِّى نحو الضرب باليد أو النعل جلداً ، لما فيه من إصابة الجِلْد بما يؤلمه .

ومن العلماء من قال بنزع ثياب المجلود سوى إزاره ، وإليه ذهب الحنفية والمالكية ، ومنهم من قال : يبقى عليه قميص أو اثنان كالشافعى وأحمد ، ومنهم من قال : تبقى عليه ثيابه إلَّا الفرو والمحشو[1] ، وعن ابن مسعود : لا يحل فى هذه الأُمّة تجريد من الثياب ولا مَدٌّ : هكذا نقل الآلوسى عن أولئك الأئمة[2] .

ثم قال : وينبغى أن لا يكون الضرب مبرحًا ، لأن الإهلاك غير مطلوب ، ولهذا قالوا : إذا كان من وجب عليه الحد ضعيفًا فخيف عليه الهلاك يجلد جلدًا ضعيفًا يحتمله ، كما قالوا : يُفَرَّقُ الضرب على أعضاء الْمَحْدُودِ ، لأن جمعه فى عضو قد يفسده ، وربما يفضى إلى الهلاك ، وينبغى أن يُتَّقى الوجه والمذاكير والرأس والبطن والصدر : انتهى ملخصًا مما نقله الآلوسى عن الأئمة .

وقد أوجب الله تعالى أن يجلد كل من الزانية والزانى مائة جلدة ، وهذا الحكم خاص بالبالغ العاقل الحر غير المُحْصَن ، وهو الذى لم يتزوج منهما ، أما العبيد والإماءُ البالغون الذين لم يسبق لهم زواج فحد الزانى أو الزانيَة منهما خمسون جلدة فقط ، لقوله تعالى فى الإماء : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »[3] والعبيد مثلهن ، إذ لا فرق بينهم وبينهن فى الفاحشة ، فليكن العقاب لهم كذلك .

---

(١) لأن المقصود إيصال الألم إلى الجلد وإن لم يكن بطريق مباشر . (٢) ونقل القرطبى عن الجمهور وجوب أن لا يخرج الضارب يده من تحت إبطه . (٣) سورة النساء ، من الآية : ٢٥

وذكر الزانية مع الزانى ليكون أصرح فى توقيع الجلد عليها من أن يقال : (والزانى فاجلدوه) وقدمت على الزانى لأن الزنى فى النساء كان فاشيًا حين نزول الآية ، وكان لإماء العرب وبغاياهم رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك ، ولأن الزنى فى النساء أكبر مَعَرَّةً منه فى الرجال ، ولما يترتب عليه من الحمل ، ولأن الباعث غالبًا منهن ، وظاهر الآية يقتضى عموم الجلد للزناة ولو كانوا محصنين – ولكن السنة الصحيحة والإجماع خَصَّاه بغير المحصن ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والخطاب فى قوله تعالى : « فَاجْلِدُوا » موجه إلى المسلمين ، ولكن الإمام أو نائبه ينوب عنهم ، لأن اجتماعهم على إقامة الحد متعذر .

المحصن حده الرجم

المراد بالمحصن هنا : البالغ العاقل الحر الذى سبق له الوطءُ فى نكاح صحيح ، فإن زنى فحده الرجم حتى يموت ، وهذا الحكم أجمع عليه الصحابة وعلماءُ الأمة وأئمتها ، ولم ينكره سوى الخوارج ، وهم بإنكارهم هذا يخالفون إجماع الصحابة ، وجميع علماء أئمة المسلمين ، والله تعالى يقول فى وجوب العمل بالإجماع : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »[1] .

ويستند إجماع الصحابة والأئمة بعدهم إلى ما صح من أمره – صلى الله عليه وسلم – برجم المحصن ، فقد تضافرت الطرق على أنه – صلى الله عليه وسلم – جاءه ماعز معترفًا بزناه ، فأعرض عنه مرارًا ، ثم عَرَّض له بالرجوع عن إقراره ، فلما أصر وكان متزوجًا أمر برجمه ، أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « لمَّا أتى ماعزُ بن مالك النبى – صلى الله عليه وسلم – قال له : لعلك قَبَّلْت أو غمزت أو نظرْت . قال : لا – وصرح بحقيقة زناه – قال : فعند ذلك أمر برجمه ، وقد شرح البخارى قصته فى رواية له بسنده عن أبى هريرة قال : « أتى رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – رجلٌ من الناس وهو فى المسجد ، فناداه : إنى يا رسول الله زنيت – يريد نفسه –

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٥

فأعرض عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فتنحى لشِقٍّ وجهه[١] الذى أعرض قِبَلَه[٢] ، فقال : يا رسول الله إنى زنيت ، فأعرض عنه ، فجاء لِشقٍّ وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – الذى أعرض عنه ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات ، دعاه النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أبِكَ جُنُونٌ ؟ قال : لا يا رسول الله ، فقال : أحْصَنْتَ[٣] ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : « اذهبوا فارجموه . . . » الحديث ، وقد رويت قصة ماعز هذا فى جميع كتب السنة وفيها تفصيلات عديدة ، وجاء فى بعضها أنه – صلى الله عليه وسلم – قال فى شأنه : « لقدْ تابَ توْبةً لوْ قُسِّمَتْ بَيْن أمة لوَسعَتْهُمْ » ، كما يَسْتندُ إجماع الصحابة على رجم المحصن إلى قصة الغامدية ، فقد جاء فى صحيح مسلم ، أثناء حديث طويل عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه قال : « فجاءت الغامدية[٤] فقالت : يا رسول الله ، إنى قد زنيت فطهرنى ، وإنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لِمَ ترُدُّنى ؟ لعلك أن ترُدَّنى كما رَدَدْت ماعزًا ، فوالله إنى لحُبْلَى ، قال : « إما لا[٥] ، فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطَمْتُه وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس برجمها » وقد جاء فى الحديث أن خالد بن الوليد كان ممن رجمها وأنه سبها ، فعلم النبي – صلى الله عليه وسلم – بمقالة خالد فيها فقال : « فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحبُ مَكْس[٦] لغُفر له ، ثم أمر بها فصُلِّى عليها وَدُفِنتْ » وقد رَوَى هذه القصة جميع كتب السنة أيضًا .

وقد حدث مثل ذلك فى امرأة من جهينة جاءت النبي – صلى الله عليه وسلم – وهى حُبْلَى واعترفت بزناها ، فتركها حتى وضعت ، فأمر برجمها ثم صلى عليها ، فقال له عمر :

---

(١) أى : ذهب ماعز إلى الجهة التى اتجه الرسول اليها بعد أن أعرض عنه ليواجهه مرة أخرى باعترافه بالزنى .

(٢) أى : الذى أعرض جهته وناحيته .

(٣) أى : هل تزوجت .

(٤) نسبة إلى غامد وهى فصيلة من قبيلة الأزد ، انظره فى ج ٤ ص٢٧٧ رقم ٢١ فى أحاديث حد الزنى فى شرح مسلم للإمام النووى .

(٥) أى : إن كنت لا تريدين الرجوع عن إقرارك ، وقد صرحت بحقيقة أمرك .

(٦) المكس : ما يفرضه أعوان الظلمة على الناس فى البيع والشراء ، والحديث يدل على خطورة جريمة المكس عند الله تعالى

(تصلى عليها يا نبي الله وقد زنت ؟) فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وُجدت توبةٌ أفضل من أن جاءت بنفسها لله تعالى » : ا هـ من حديث أخرجه مسلم بسنده فى كتاب الحدود (باب حد الزنى) ج ٤ شرح النووى ص ٢٨ رقم ٢٢

كما استند الإجماع إلى ما قضى به – صلى الله عليه وسلم – فى قصة العسيف وزوجة الأعرابى ، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما قالا : إن رجلًا من الأعراب أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله أنشدُك الله إلّا قضيت لى بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « قل » قال : إن ابنى كان عسيفًا على هذا[1] فزنى بامرأته ، وإنى أُخبِرْتُ أن على ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة[2] فسألت أهل العلم فأخبرونى أن ما على ابنى جَلْدُ مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجمَ ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنَمَ رَدٌّ[3] ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغدُ يا أُنيسُ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قال : فغَدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرجمت.[4]

والمراد من قضاء الرسول بينهما بكتاب الله أنه يقضى بينهما بحكمه تعالى المكتوب عنده على الزناة المحصنين وعلّمه رسولَه ، وليس المراد منه القرآن .

وكما استند الإجماع إلى أفعال الرسول استند أيضًا إلى أقواله التى روتها كتب الصحاح .

---

(١) أى : أجيرا عنده .

(٢) أى : جارية .

(٣) أى : يردان عليك ويعودان إليك .

(٤) شرح النووى ج ٤ ص ٢٨١ رقم ٢٣ .

اعتراض الخوارج على عمر بن عبد العزيز فى الرجم وإفحامه إياهم

كان عمر بن عبد العزيز يقول بالرجم وينفذه كسائر أمراء المؤمنين ، فعاب عليه الخوارج ذلك ، قائلين : إنه ليس فى كتاب الله ، فألزمهم بأَعْدَادِ الركعات ومقادير الزكوات ونحو ذلك مما فصلته السنة ولا يوجد فى كتاب الله ، فقالوا : ذلك من فعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين ، فقال لهم : وهذا أيضًا كذلك .

وقد تنبأ بذلك عمر بن الخطاب ، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال عمر : (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أَحْصَنَ ـ أى : تزوج ـ إذا قامت البينة أو كان الحَمْل أو الاعتراف)[1] .

لماذا لم يذكر الرجم فى القرآن

قد يقول قائل : قد ذكر الله من أحكام الزناة الحبس والإيذاء والجلد فى القرآن ، فلماذا لم يذكر فيه الرجم ، ولعله أولى منها بالذكر لشدته ؟

فالجواب : أنه تعالى قد أنزل فى سورة النساء : « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » ولم يعين فى الآية السبيل الذى سوف يجعله لهن عوضًا عن الحبس فى البيوت ، أيكون نصًّا قرآنيًّا ، أم يكون حكمًا ينزل به جبريل على رسول الله ليبين به الرسول السبيل الذى ينسخ الحبس فى البيوت حتى الموت ، ثم أنزل الله السبيل الناسخ لحبس الزانية فى البيوت ، فجعله فى القرآن مائة جلدة لكل من الزانية والزانى ، وجعله فى السُّنة الرجم للمحصن مِنْ كُلٍّ منهما .

---

(١) وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال :

(خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تخدعن عنه ، فإنه حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب الله ما ليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رجم بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا) ابن كثير . والامتحاش : الاحتراق .

وقد اعتبر بعض الفقهاء ما جاء فى السنة مخصصًا لعموم الجلد وقاصرًا له على غير المحصن ، واعتبره بعض آخر منهم عقوبة للمحصن زائدة على جلده ، فيجلد مائة ثم يرجم ، والرأى الأول أرجح ، لأن النبى لم يجمعهما على محصن فى عهده ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى أعطى نبيه حق بيان القرآن بقوله : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وهذا البيان ملزم للمسلمين أن يعملوا به لقوله تعالى : « وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا » فالنبى حين بيَّن أن حكم الزانى المحصن من الإناث والذكور الرجم يكون قد بين السبيل الثانى الذى جعله الله بدلًا من حبس الزناة وإيذائهم الواردين فى سورة النساء ، تنفيذًا لوعد الله إذ يقول : « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » كما بين عمليًا أن السبيل الأول الوارد بآية الجلد خاص بمن لم يتزوج ، وكلاهما حق منحه الله لنبيه ، ومعظم ما جاء فى القرآن قواعد عامة ، فلم يتعرض القرآن لتفصيل الأحكام إلّا قليلًا ، والحكمة فى ذلك أن يتيسر حفظه ويتضح إعجازه ، ولهذا أُحيل تفصيل معظم الأحكام ولو كانت خطيرة على الرسول بوحى من الله تعالى ، كتفصيل أحكام الصلاة والزكاة ، فإنهما لم يرد عنهما فى القرآن سوى الأمر بهما دون تفصيل لأركانهما وشروطهما وأوقاتهما ، وَغَيْرُهما كثير على هذا النمط .

ولعل الحكمة فى إسناد بيان حكم الرجم إلى الرسول أن يَعْلَم المؤمنون أن السنة يجب الأخذ بها حتى فى أخطر الأحكام . والله الموفق .

الحكمة فى تشديد الحد على الزناة

قد يقول قائل : لماذا شدد الإسلام فى حد الزناة ، فجعله فى غير المحصن من الذكور والإناث إلى مائة جلدة ، وفى المحصن منهما إلى الرجم ؟

والجواب : أن العقاب ينبغى أن يكون بقدر حجم الجريمة ، ولما كان الزنى تترتب عليه آثار سيئة فى المجتمع الإسلامى ، حيث تفضح به الأعراض ، وتختلط به الأنساب ،

ويُختَانُ به الأزواج والأهلون المخدوعون فى شرف ذويهم ، وتقتل بعده الأجنة أو الأطفال الناجمون عنه ، تخلصًا من عارهم ، وتنتشر به الفتن والمفاسد والتحلل الخلقى - لَمَّا كانت تترتب عليه تلك الآثار- جعل الله الحد فيه شديدا دَرْءًا لمفاسده ، ووقاية للمجتمع من شروره وويلاته ، فإذا علمه من تميل نفسه الخسيسة إلى الزنى ، تجنبه خوفًا من عقوبته فى الدنيا والآخرة .

ولا شك أن تنفيذ الحد على الزناة ، بالصورة التى أرادتها الشريعة ، يحدث أثرًا طيبًا فى المجتمع الإسلامى ، حيث يكف الفجرة عن الزنى خوفًا من عقوبته ، فتسلم الأعراض وتصان الحرمات وتصحح الأنساب ، وينتهى وأد الأجنَّة ، وتمتنع الفتن ، بل يتلاشى تنفيذ هذا الحد ، لعدم وقوع الزنى ، أو يندر تنفيذه لندرة وقوع الزنى أو تعذر إثباته .

شروط اقامة الحد وما ينبغى للقاضى

لايقام حد الزنى على من اقترفه ، إلَّا إذا ثبت الزنى عليه باعترافه - ذكرا كان أو أنثى - وإصراره على هذا الاعتراف - أو بأن يشهد عليه أربعة شهود عدول رأوا الواقعة وحكوها على طبيعتها تمامًا ، أو بِحَمْلِ البِكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فأما اعتراف الزانى بزناه فإنه إذا كان قد حدث فى العصر النبوى ، طلبًا للبراءة من إثمه قبل لقاء الله تعالى ، فإنه يندر حدوثه فى هذا العصر الذى كثرت فيه المآثم ، بل ربما ينعدم ، لأن الشرع لا يلزمه بالاعتراف سترًا لإثمه وفتحًا لمجال التوبة له فيما بينه وبين ربه - كما سنبينه..

وأما اجتماع الشهود الأربعة فى وقت واحد ، ورؤيتهم واقعة الزنى بتفاصيلها ، فما لم يكن عن طريق الصدفة ، فإنه يتعذر حصوله عن طريق الاستدعاء ، وبما أن الصدفة فى ذلك أمر بعيد الاحتمال ، وحضور الشهود بطريق الاستدعاء يتم بعد حصول الجريمة ، فلهذا يكون إثباته عن طريق شهود الرؤية أمراً متعذراً .

وأما إثباته بحمل البكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فهو نادر ، بل ربما كان بعيد الاحتمال فى عصر ابتكرت فيه وسائل منع الحمل .

وقد بلغت سماحة الإسلام فى تجنيب الزانى حد الزنى ،وتركه لربه لعله يتوب فيما بينه وبينه ، أنه ينبغى للقاضى أن لا يتعقب اعترافه ، فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجل فقال : إنى أصبت حدا فأقمْ فىَّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا؟ قال : نعم ، قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال - : حدك » .

وإذا أصر الزانى على اعترافه بأنه زنى ، رغبة فى إقامة الحد ، ينبغى للقاضى أن يصرفه عن اعترافه هذا بالتعريض له بتركه؛ فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : (لما أتى ماعز النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت » قال لا يا رسول الله) أى : أنه - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يقول له : لعلك اعتبرت واحداً من هذه الثلاثة زنى ، فقلت إنك زنيت ، وليس فى مثل ذلك حد فانصَرِفْ ، ولكنه أصر على أنه زنى حقيقة ، ولقد مضى أن النبى كان يعرض بوجهه عنه لِيَنْصَرِفَ ، فيعود فيواجه النبى باعترافه أربع مرات ، فأمر برجمه .

ويروى البخارى فى هذا حديثا فى صحيحه بسنده عن جابر (أن رجلا من أسلم جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - فاعترف بالزنى فأعرض عنه النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أبكَ جنون؟ » قال : لا ، قال : آحْصنت[1] ؟ قال : نعم ، فرُجِمَ بالمصلى ...) الحديث ،فمن هذا التفصيل نعلم أن إقامة الحد على الزانى محوطة بحصانة وضمانات تجعلها شبه متعذرة لحرص الشارع على الستر على الأعراض ، وترك الباب مفتوحا للمذنب ليتوب إلى ربه فيما بينه وبينه .

لا يشترط فى الرجم أن يكون بالحجارة

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى سعيد (أن رجلا من أسلم يقال له ماعز ابن مالك أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : إنى أصبت فاحشة فأقمه علىَّ ، فردّه

(١) أى : هل تزوجت .

النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً ، قال : ثم سأل قومه ، فقالوا : ما نعلم به بأسا ، إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد ، قال : فرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمرنا أن نرجمه ، قال : فانطلقنا به إلى بقيع الغَرْقَد - قال - فما أوثقناه ولا حفرنا له ، قال : فرميناه بالعظم والمدر والخزف ، قال : فاشتد واشتددْنا خَلْفَه حتى أتى عُرْض الحرة فانتصب لنا ، فرميناه بجلاميد الحرة . . . » الحديث[١] .

فأنت ترى أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رجموا الزانى المحصن فى عهده - صلى الله عليه وسلم - بالعظم وبالمدر ، وهو قطع الطين اليابس - كما فى القاموس ، جمع مدرة بفتحات - ورجموه بالخزف - وهو قطع الفخار المكسور - كما رموه بجلاميد الحجارة حتى مات ، فهذا يدل على أن المقصود برجمه قتله بشىء جامد يفضى إلى موته ، فهل لنا أن نرجمه فى عصرنا هذا بالرصاص ، قياسا على مافعله أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فى عهده ، حيث لم يقتصروا فى قتلهم ماعزا على جلاميد الحجارة ، بل استعملوا العظم وسواه من كل جامد يفضى إلى القتل ، والرصاص كذلك ؟

وإذا كان الرجم بالحجارة والعظم والخزف ونحوها أمراً اقتضته الضرورة فى عهده - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يخترع الرصاص ، فهو اليوم ليس ضروريا بعد اختراعه ، وقد يسىء إلينا استعماله فى العصر الذى نعيش فيه ، حيث يحمل أعداء الاسلام على التشهير بنا بسببه ، هذه مسألة جديرة بالنظر ومحتاجة إلى رأى المجتهدين للبت فيها والله الموفق .
فإن قيل : إن الرمى بالحجارة يعطى المرجوم فرصة للهرب ، لأنه يرمى واقفا من غير توثيق كما فعل بماعز ، والهرب من الحد مرغوب فيه ، أما الرمى بالرصاص فإنه يستلزم توثيقه وربطه ليصيبه ، فالجواب أن ماعزا لم يكن بحاجة إلى توثيقه وإمساكه فهو الذى أصر على إقامة الحد عليه[٢] ، على أن تركه بلا إمساك ليس بواجب ، فقد جاء فى حديث الغامدية الذى مرت روايته عن مسلم ، أن النبي لما أمر برجمها بعد فطمها صبيها ، حفروا لها حفرة إلى صدرها فرجمت ، مع أنها جاءته معترفة طالبة إقامة الحد عليها ، وأمهلها النبي حتى

---

(١) انظره فى ج ٤ شرح النووى على مسلم ص ٢٧٣ حديث رقم : ١٨ من باب حد الزنى .
(٢) بل لقد جاء عند مسلم فى إحدى رواياته ، أن ماعزا لما أقر أربع مرات حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

وضعت حملها وفطمت صبيها ، لهذا نرى أن المسألة جديرة بالنظر من رجال الفقه المعاصرين والله – تعالى – يهدى إلى سواء السبيل .

حاشية : الرقيق والأمة اللذان سبق لهما الزواج ، لا يرجمان إذا زنيا ، بل يجلد كلاهما خمسين جلدة ، لأنهما على النصف من الحُرّ فِى الحدِّ ، والرجمُ لا يقبل التجزئة ، فعدل به إلى الجلد فيهما .

المعنى الاجمالى للآية واحكامها

أما وقد فرغنا من البحوث الهامة فى الآية ، فإلى القارىء فيما يلى معناها الإجمالى : الزانية التى وطئها باختيارها رجل لا يحل له وطؤها ولم يسبق له الزواج ، والزانى الذى وطىء امرأة باختياره يحرم عليه وطؤها ولم يسبق له الزواج ، يجلد كل منهما مائة جلدة إذا كان حرًّا بالغاً عاقلا ، أما من فيه رق فإنه يجلد خمسين جلدة ، لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » والعبيد كالإماء فى ذلك ، ولا يقام هذا الحد إلا على من ثبت زناه بإقراره ، أو بشهادة أربعة شهود عدول رأوه بأعينهم ، أو بحَمْل المرأة وهى غير متزوجة ، ولفظاعة الزنى وقبح آثاره أوجب الله أن لا تأخذنا بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشريعته ، فلا يحل جلدهما أقل مما أوجبه فيهما ، ولا ضربهما من غير إيلام ، ولا العفو عنهما بشفاعة أو رأفة وشفقة بعد ثبوت الزنى عليهما ، رَدْعًا لهما ولغيرهما . وحماية لأعراض المسلمين وأنسابهم من مثل جرمهما .

وقد أثار الله ما فينا من إيمان بقوله : « إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلهابًا لِحَمِيَّتِنا الدينية فى تنفيذ حكمه عليهما ، أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فلا تأخذكم بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشرعه فيهما وقد أمر الله أن يحضر عذابهما حين إقامة الحد عليهما طائفة – أى جماعة – من المؤمنين ، زيادة فى التنكيل والتشهير ، وللعبرة والاتعاظ والأمر بحضورهم للندب وليس للوجوب على ما قاله الفقهاء ، والمراد بهم : جماعة يحصل بهم التشهير والزجر ، وأقلهم ثلاثة ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنى .

أما الزانى المحصن أى الذى سبق له الدخول فى نكاح صحيح فحده الرجم حتى يموت ، كما سبق بيانه فى البحوث التى سبقت هذا المعنى الإجمالى للآية ، فارجع إليها لتكون على علم بهـا .

٣ - (الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة أن مرتكب جريمة الزنى إذا كان حُرًّا يجلد مائة جلدة ، سواءٌ أكان من الرجال أم من النساء ، وأنه لا يحل للمسلمين أن يتساهلوا فى تنفيذ هذا الحد رأفة بالزناة ، وأن يُشَهَّر بهم عند تنفيذه بأن يشهد إقامة الحد عليهم طائفة من المؤمنين .

وجاء بهذه الآية عقبها ، لبيان حقارة الزانى والزانية ، وأن كليهما لا يرضى بالاستجابة إلى فاحشته إلَّا مثله أوأخس منه ، والنكاح فى هذه الآية بمعنى الجماع كما صح عن ابن عباس[١] .

والمعنى على هذا : الزانى لِخِسَّتِهِ وقبحه ، لا يطأُ سفاحًا إلَّا زانية تماثله فى فحشه وخبثه ، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها ، فكلتاهما تطاوعه لفقد الوازع الدينى والخلقى لديهما ، أما العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها ، لحصانتها بعفتها ودينها المتين ، والزانية لخستها وفحشها لا يطؤها سفاحًا إلَّا زانٍ يماثلها فى فحشها أو مشرك يحاكيها فى خبثها ، وحرم ذلك على المؤمنين ، لأنه لا يليق بإيمانهم التلوث بمثله ، ولو كان لدى الزناة إيمان لبعدوا عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وأجاز بعض الأئمة تفسير النكاح هنا بالتزوج ، على ما هو معروف فى نصوص القرآن الكريم ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم فى سبب نزول الآية عن مقاتل أنه قال : (لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بِجَهْدٍ إلَّا قليلًا منهم ، والمدينة غالية السعر ، شديدة الجَهْد[٢] ، وفى السوق زوانٍ مُتَعَالِنَاتٌ من أهل الكتاب ، وإماءٌ لبعض الأنصار ، قد رفعت كلٌّ امرأة منهن على بابها علامةً لتُعرفَ أنها زانية ، وكنَّ مِنْ أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيرًا ، فرغب أُناس من مهاجرى المسلمين فيما يكتسبن للذى فيهم من الجَهْد ، فأشار بعضهم على بعض : لو تزوجنا بعض هؤلاء الزوانى ، فنصيب من فضول ما يكتسبن ، فإذا وجدنا عنهن غِنًى تركناهن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

---

(١) أخرج أبو داود فى ناسخه، والبيهقى فى سننه، والضياء فى المختارة، وجماعة من طريق ابن جبير عن ابن عباس أن النكاح هنا بمعنى الوطء

(٢) الجهد هنا : بمعنى الطاقة ، أى : أن المدينة شديدة الطاقة عليهم لغلاء أسعارها ، والجهد فيما تقدم : بمعنى الشدة ، يكنى بها عن الفقر بسبب الهجرة .

ومعنى الآية على هذا : الزانى لا يليق به أن يتزوج إلّا زانية أو مشركة لقبحه مثلهما ، والزانية لا يليق أن يتزوج بها إلّا زان أو مشرك كذلك ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، فالآية تُزهِّد فى نكاح البغايا والزناة ، وليس الغرض منها إباحة زواجهن أو زواج المشركات للزناة من المؤمنين ، كما أنها تحث المؤمنين والمؤمنات على التصوُّن من نكاح هذا النمط من الفساق ، وأن يكون الطيبات منهم للطيبين ، والطيبون للطيبات .

وعلى هذا التأويل يفسر قوله تعالى : « وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » بمعنى : حُرِّم نكاح البغايا والزناة على المؤمنين [1] ، لما فيه من التسبب فى سوء القالة ، والتعرض للإقدام على مثل فعلهم ، فإن مجالسة الفساق والخطائين تحمل على مثل فعلهم ؛ فكيف بمزاوجة الزوانى والزناة ، وبخاصة إذا كان بقصد التكسب بالفاحشة ، وفى الآية آراء مختلفة ، وما ذكرنا أفضلُها ، ولو تزوج المؤمن بزانية فمع حرمة الزواج بها للأسباب المذكورة يصح العقد عليها فقد سُئل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال : « الحرام لا يحرم الحلال » أخرجه الطبرانى وغيره عن عائشة وبه أخذ أبو بكر وابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم .

(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) : يقذفون العفيفات بتهمة الزنى .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن طاعة الله .

---

(١) فاسم الإشارة على هذا راجع إلى نكاح البغايا ، وعلى الوجه السابق راجع إلى الزنى المعبر عنه بالنكاح . انظر ما قاله النسفى وغيره فى مرجع الإشارة .

التفسير

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

هذه الآية مبينة حكم من نسب الزنى إلى غيره ، بعد بيان حكم من فعله ، والآية كما فى صحيح البخارى نزلت فى عويمر بن أمية بعد ما قذف زوجته خولة بنت عاصم بشريك ابن سمحاء ، وقيل : نزلت بسبب قصة الإفك .

والرمى فى أصل اللغة : يستعمل فى قذف الشىء باليد ونحوها ، تقول : رمى الحجر أو السَّهم ، أى : قذفه ، ثم استعمل مجازًا فى السب والشتم ، والمراد منه هنا السب بالزنى بقرينة اشتراط شهود أربعة ، وذلك خاص بالزنى ، والمراد بالمحصنات هنا النساءُ العفيفات ، وقد قرئت بفتح الصاد وبكسرها ، فقراءة الفتح على معنى اللاتى أحصنهن أهلهن ، وقراءة الكسر على معنى اللاتى نشأْن فى حصانة وعفة ، يقال : أُحصنت المرأة أى : عفت ، وأحصنها أهلها أى : ربَّوها على العفة ، فالفعل لازم ومتعد ، واقتصار الآية على النساء العفيفات لا يمنع من إيجاب حد القذف على من يقذف الرجال الأعفاء باللواط فيما بينهم أو بالزنى وهذا أمر داخل فى الآية بالمعنى ، وحكم مجمع عليه ، فإنه لا وجه لتخصيص النساء بهذا الحكم دون الرجال ، فالإسلام حريص على كرامة الإنسان بنوعيه ، والحكمة فى التصريح بالنساء فى الآية أن رميهن بالفاحشة أكثر وأشنع[1] ، وأن النفوس تسرع إلى تصديق القذف فيهن أكثر ، فلهذا خصهن بالذكر فى الآية مبالغة فى حماية أعراضهن ، ومثل ذلك أن الله تعالى نص على حرمة لحم الخنزير ، وقد دخل فى حكمه الشحم والغضاريف ، لأنه لا وجه لتخصيص لحمه بالحرمة دون شحمه وغضاريفه .

ويقول ابن كثير : إذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء .

ويثبت الإحصان ، أى : العفة فى المقذوف ، بإقرار القاذف بها ، أو بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ويشترط فيمن قذفه لكى يقام عليه حد القذف أن يكون بالغًا عاقلًا

(١) ولخصوص الواقعة .

ناطقًا غير مكره ، عالماً بالحرمة ولو حكمًا ، بأن نشأ فى دار الإسلام ، ويشترط فى الاتهام المقذوف به ، أن يكون بوطء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى أو اللواط أو بنفى ولد عن أبيه ، فلا يكفى أن يقول للمقذوف : يا فاسق أو يا فاجر فإن فى ذلك التعزير لا الحد إذا ثبت بإقرار أو بشهادة رجلين ،ويشترط فى المقذوف: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والعفة عن الفاحشة التى رمى بها .

قال القرطبى فى المسألة الرابعة : وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف وإن لم يكونا من معانى الإحصان ، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ ــ كذا قال .

فإذا قذف المسلم رجلًا أو امرأة من أهل الكتاب فلا حد على المسلم القاذف ولكنه يعزر ما لم تكن المقذوفة كتابية متزوجة بمسلم ، فقد قيل بجلد من يقذفها ، كما نقله القرطبى فى المسألة السادسة ، ومن رمى صبية بالزنى قبل البلوغ ، وكان يمكن وطؤها ، فإن ذلك يعتبر قذفًا يستوجب الحد عند الإمام مالك .

وقال الإمام أحمد فى الجارية بنت تسع :يجلد قاذفها ، وكذا الصبى إذا بلغ عشرًا ، وقال الإمام مالك : إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا يُحَدُّ عليه ، وقال أبو حنيفة والشافعى وأبو ثور : ليس بقذف يُحَدُّ عليه ، لأنها لو فعلته هى فلا يعتبر زنى فى حقها ، لأنها لم تبلغ حتى تدخل دائرة التكليف ، ولهذا لا يقام عليها الحد ، ولكن يعزر من سبها ، ويقول ابن العربى تعقيبًا على هذا الخلاف : المسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكًا راعى حماية عرض المقذوف[1] وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره ، فلزمه الحد[2] .

وقد بينت الآية أن الحد إنما يقام على القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء على واقعة الزنى ، فإن جاء بهم فلا يقام عليه حد ، ومثله ما إذا اعترف المقذوف بالزنى أو اللواط ، فإنه يسقط الحد عن القاذف ، ولابد فى شهادتهم أن تكون رواية مفصلة لواقعة عاينوها بحقائقها ، فإن امتنع أحدهم عن الشهادة ، وشهد غيره ، جلد هؤلاء الثلاثة كما يجلد القاذف تمامًا ،

---

(١) وكذلك فعل الإمام أحمد .

(٢) انظر القرطبى فى المسألة الحادية عشرة .

وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب بثلاثة شهدوا بالزنى على المغيرة بن شعبة ، وتوقف الرابع عن الشهادة عليه [١] فإن تمت الشهادة ولم تثبت عدالة الشهود ، فلا حد على الشهود ولا على المشهود عند بعضهم ، وعلى الشهود الحد عند آخرين . [٢]

وحدُّ القذف كما بينته الآية ثمانون جلدة ، على نحو ما تقدم بيانه فى جلد الزانية والزانى فى كيفية الجلد ، فإن كان القاذف عبدًا والقذف للحر ، جلد العبد أربعين ، لأنه فى الحدود على النصف من الحر ، وهذا هو رأى الجمهور ، وروى ابن مسعود وعمر ابن عبد العزيز وغيرهما : أنه يجلد ثمانين جلدة ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » ولا يقتصر عقاب القاذفين على إقامة الحد عليهم ، بل ترد شهادتهم دائمًا فى أى أمر شهدوا عليه ، ويحكم بأنهم فاسقون عند الله وعند الناس ، وإنما شدد الله العقاب على القاذفين لغيرهم بالزنى ، وأوجب عليهم أن يأتوا بأربعة شهود عدول إن أرادوا الإفلات من عقابهم حماية لأعراض العباد ، وسترًا على الخطَّائين لعلهم يتوبون .

وترد شهادة القاذف عند الشافعية إذا ثبت عليه القذف ـ وإن لم يقم عليه الحد بعد . وأما عند الحنفية فلا ترد شهادته إلَّا بعد تمام جلده ، أو بعد البدء فيه ولو بسوط واحد ـ كما قال بعض آخر منهم ، أو بعد إقامة أكثره عند فريق ثالث منهم ، أمَّا قبل ذلك فتقبل شهادته .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين يقذفون النساء العفائف من المسلمات الحرائر ، ثم لم يأتوا بأربعة من الرجال العدول ، يشهدون تفصيلًا على واقعة الزنى وقد رأوها بأعينهم ، فعاقبوا هؤلاء القاذفين ثلاث عقوبات ، أولاها : أن تجلدوهم ثمانين جلدة ، وثانيتها : أن تردُّوا شهادتهم مادامو أحياء ، وثالثتها : أن تصفوهم بالفسق والخروج عن طاعة الله ؛ وذلك حماية لأعراض المسلمات والمسلمين من ألسنة الكاذبين ، وسترًا للخاطئين منهم لعلهم يتوبون ويرجعون إلى ربهم فيما بينهم وبينه ، ومثل ذلك فى العقوبة من يقذف مسلمًا حرًّا عفيفًا

---

(١) انظر المسألة التاسعة عشرة من القرطبى .

(٢) قال بنفى الحد عنهم : الحسن البصرى والشعبى وأحمد، وقال مالك بوجوب الحد على الشهود والقاذف فى هذه الحالة . انظر المسألة الخامسة عشرة من القرطبى .

بأنه زنى أو فُعِلَ به اللواط ، حماية للمسلمين من سوء القالة ، وكفا لألسنة الناس عن الخوض فى الباطل .

٥ - (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

اختلف العلماء فى هذا الاستثناء ، فقال بعضهم : إنه يعود إلى الجملة الأخيرة : « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » دون ما قبلها ؛ فإذا تاب القاذف وأصلح ارتفع عنه وصف الفسق ويبقى مردود الشهادة طول حياته بعد جلده ، فردُّ الشهادة عند هؤلاء العلماء من الحد فلا يسقط بالتوبة ، وممن قال بذلك : القاضى شريح وسعيد بن جبير ومكحول وأبو حنيفة ، ومنهم من قال : يرجع إلى الجملتين الثانية والثالثة : « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وهذا يقتضى أن من تاب وأصلح تقبل شهادته ويزول فسقه ، فالحد عندهم قاصر على الجلد ، وممن قال بذلك : سعيد بن المسيب سيد التابعين ، والأئمة مالك والشافعى وأحمد وجماعة من السلف .

وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب إلَّا أن يعترف على نفسه بأنه كان مُفْتَريًا ، فحينئذ تقبل شهادته[1] .

ولما بين الله حكم قذف الأجنبيات عقبه بحكم قذف الزوجات فقال سبحانه :

---

(١) راجع ابن كثير فى الآية .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) : أى يقذفون زوجاتهم بالزنى . (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ) : ولم يكن لهم شهود على الزنى سوى أنفسهم . (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ[1] شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ) : أى فشهادة أى واحد منهم على زنى زوجته أربع شهادات بالله .

(إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : جواب القسم المفهوم من الشهادة ، فهى بمعناه كما قال الراغب .

(الْخَامِسَةُ) : أى والشهادة الخامسة للشهادات الأربع ، أى : الجاعلة لها خمسًا بانضمامها إليهن .

(أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) : اللعنة واللعن ، الطرد من الرحمة والإبعاد من الخير . (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ) : ويدفع عنها عقاب الزنى ، وسيأتى بيانه فى شرح الآيات .

(وَالْخَامِسَةَ[2] أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا) : الغضب ؛ أشد من اللعن ، ولذا خص بلعان المرأة تغليظًا عليها ، بعد أن لاعنها زوجها وشهد عليها .

(١) قرىء لفظ : أربع هنا بالرفع على أنها خبر لشهادة ، وقرئ بالنصب على أنه مفعول مطلق للشهادة ، وعلى هذه القراءة تكون كلمة (شهادة) خبر مبتدأ محذوف ، أى : فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات .

(٢) الخامسة هنا منصوبة عطفا على أربع الثانية .

التفسير

٦، ٧ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

كان المسلمون قبل نزول هذه الآية وما بعدها ، يفهمون من عموم الآيات السابقة ، أن مَنْ يرمى المحصنة - أى : العفيفة - بالزنى وإن كانت زوجته ، ولم يستطع الإتيان بأربعة شهود ، يعاقب بالجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبدًا ، ويكون من الفاسقين ، لأن ظاهر أمرها على الإحصان ، أى : العفة ، فنزلت هذه الآية لتخصيص عمومها بغير الأزواج ، إذْ بينت أن للأزواج مخرجًا من الحد عند فقد الشهود الأربعة .

روى الإمام البخارى فى سبب نزول آيات اللعان بسنده عن سهل بن سعد أخى بنى ساعدة أن رجلًا من الأنصار جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : يا رسول الله أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فى شأنه ما ذكر فى القرآن من أمر المتلاعنين ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : «قد قضى الله فيك وفى امرأتك » قال : فتلاعنا فى المسجد وأنا شاهد ، فلما فرغا قال : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها[1] ، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فرغا من التلاعن ، ففارقها عندالنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ذاك تفريق بين كل متلاعنين ، قال ابن جُرَيْج : قال ابن شهاب : فكانت السُّنَّة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملًا ، وكان ابنها يُدْعى لأُمِّه ، قال : ثم جرت السنة فى ميراثها أنها ترثه ويرث منها ما فرض الله له ، قال ابن جُرَيْج عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدى فى هذا الحديث : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن جاءت به أحمر قصيرًا كأنه وَحَرَة[2] فلا أراها إلَّا قد صدقت وكذب عليها ، وإن جاءت به أسود العينين ذا أَلْيَتَيْن فلا أراه إلَّا قد صدق » فجاءت به على المكروه من ذلك .

---

(١) يعنى أنه إن لم يطلقها يعتبره الناس كاذبا عليها ، فلهذا طلقها .

(٢) الوحرة بفتح الحاء المهملة : القصير من الإبل .

والزوج المذكور فى هذا الحديث هو عويمر العجلانى ، ففى رواية أخرى للبخارى عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدى - الذى روى الحديث السابق - أخبره أن عويمر العَجْلَانى جاء إلى عاصم بن عدى الأنصارى فقال له : يا عاصم أرأيت رجلا وجد على امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ سَلْ لى يا عاصم عن ذلك ، فسأل عاصم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فكره رسول الله المَسَائِلَ وعابها حتى كَبُرَ على عاصم ما سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال عاصم لعويمر : لَمْ تأتنى بخير ، قد كره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسألة التى سألتُهُ عنها ، فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك ، فاذهب فائت بها » قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر : كذبْتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتُها ، فطلَّقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن شهاب : فكانت سُنَّة المتلاعنين .

وقد حدثت هذه النازلة مع امرأة هلال بن أمية - روى أبو داود وغيره عن ابن عباس ما يفيد أن هلالا قذفها ولم يكنْ له شهود على زناها . فكان ذلك سببًا فى نزول آيات اللعان ، وجمعا بين الروايات نقول : لعلهما حدثا متقاربين فنزلت الآيات بشأنهما ، وليس مهما أن يعرف السابق منهما .

ويستوى فى حكم اللعان الزوجات المدخول بهن وغيرهن ، وكذلك المعتدات عن طلاق رجعى ، وقد عرَّفوا اللِّعان شرعًا : بأنه كلمات معلومة ، جعلت حجة للمضطر إلى قذف من لَطَّخت فراشهُ وألحقت به العار ، أو إلى نفي الولد عن نفسه ، وسُمِّى لعانًا لاشتماله على كلمة اللعن ولأن كُلاًّ من الزوجين يبعد به عن الآخر بعدًا أبديًا فلا يتناكحان أبدًا .

وقد شرع اللعان لتخليص الزوج من حد القذف إذا قذف زوجته بالزنى ولم يجد له شهودًا أربعة عدولا على قذفها ، وهى مصرة على تبرئة نفسها مما اتهمها به .

وطريقة التقاضى فى هذه المُلِمَّة : أن يتهم الزوج زوجته بالزنى ، فيقول له القاضى بعد أن تبرئ المرأة نفسها : البينة أو حَدٌّ فى ظهرك ، فيقول الزوج : لا بينة عندى وقد رأيتهما بعينى مثلًا ، فيدعوه القاضى إلى اللعان ، وهو كما فهم من الآية أن يقول : أشهد بالله إننى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتى فلانة من الزنى ويرفع نسبها بما يميزها إن كانت غائبة ويشير إليها إن كانت حاضرة ، وينفى الولد إن كانت حاملًا به أو ولدته فيقول : وإن هذا الحمل أو الولد من الزنى وليس منى ، ويكرر هذه الشهادة أربع مرات ، وكل ذلك بتلقين القاضى كما هو شأن اليمين[1] فى سائر الخصومات ، ثم يقول فى المرة الخامسة بعد أن يعظه القاضى ويلقنه : وعلىَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين ، وتشترط الموالاة بين الكلمات الخمس ، ويترتب على لعانه عدة أحكام :منها سقوط الحد عنه ، ووجوب الحد عليها ولو كانت ذمية تحت مسلم ، أو تحت ذمى احتكم إلينا ، وزوال الفراش – أى النكاح – إلى الأبد ، وانتفاءُ الولد إن نفاه فى لعانه ، لخبر الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – : « فرق بينهما وألحق الولد بالمرأة » وقوله – صلى الله عليه وسلم – : « المتلاعنان لا يجتمعان أبدًا » أخرجه الدارقطنى والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عمر ،كما يترتب عليه سقوط حد القذف بالنسبة للزانى إن سماه الزوج فى قذفه لزوجته ، وتشطير الصداق قبل الدخول كالطلاق قبله ، واستباحة نكاح أختها وأربع سواها وإن لم تنقض عدتها ، كما فى الطلاق البائن ، وعدم نَفَقَتِها وإن كانت حاملًا بمن نفاه –وهذه الأحكام منقولة عن الشافعية ومن يرى رأيهم ، وللموضوع صور وتفصيلات ومذاهب للفقهاء، تطلب من مطولات كتب الفقه والتفسير .

وقد شرع الله للمرأة حق الدفاع عن نفسها لتَدْرأ عنها الحد وسوء القالة ، فربما كان الزوج كاذبًا يبغى تشويه سمعتها لخلاف بينهما ، حيث قال سبحانه منصفًا لها :

٨ ، ٩ – (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

(١) فشهادات اللعان أيمان مؤكدة عند الشافعية والمالكية والحنابلة،أما عند الحنفية فهى شهادات مؤكدة بالأيمان ؛ولذا يشترطون فيها العدالة كسائر الشهادات .

فنى هاتين الآيتين يبين الله سبحانه ، أن للزوجة أن تدفع عن نفسها العذاب المترتب على لعان الزوج وشهاداته ضدها ، فتكذبه فيما قذفها به .

وطريقة تكذيبها إياه كما يفهم من نص هاتين الآيتين : أن تقول أربع مرات بتلقين القاضى وأمْرِه : أشهد بالله إن فلانًا لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، وتميزه بالاسم والنسب إن كان غائبًا ، وتشير إليه إن كان حاضرًا ، وتقول فى الخامسة بأمر القاضى وتلقينه : وعلىَّ غضب الله إن كان من الصادقين ، فإذا قالت ذلك فلا حَدَّ عليها ، ولكنها لا تعود إلى زوجها أبدًا كما تَبْقَى الآثار الأُخرى التى ترتبت على لعانه ـ كما قال الشافعية[1] .

والغضب أعظم من اللعنة ؛ لأنه يتضمنها وزيادة ، ولذلك خصت به المرأة ، لأن جريمة الزنى منها أقبح من جريمة القذف منه ، ولهذا تفاوت الحدان .

وقبل أن يلاعن الزوج يذكره القاضى بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا إذا لاعن كاذبًا فإن أصر على اتهامه وملاعنته لزوجته ، قال له القاضى قبل الخامسة : اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه هى الموجبة التى توجب عليك العذاب فإن أبى شهد الشهادة الخامسة ، وكذلك يفعل مع المرأة ، ويقرأُ عليهما قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ... » الآية[2] .

١٠ ـ (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) :

فى هذه الآية انتقال إلى أُسلوب الخطاب للرامين والمرميات ، بعد الحديث عن أحكامهما بأُسلوب الغيبة ، وذلك منه تعالى لتوفية مقام الامتنان عليهم ، وجواب لولا مقدر ، ولم يذكر

---

(١) جاء فى القرطبى فى المسألة السادسة والعشرين فى تفسير هذه الآية : قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده ـ ثم قال القرطبى قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ـ ثم قال : وقال الشافعى : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ـ التعنت أو لم تلتعن ـ قال الشافعى : وأما التعان المرأة فهو لدرء الحد عنها لا غير ، وليس لا لتعانها فى زوال الفراش معنى ، ثم ذكر فى المسألة التاسعة والعشرين أنهما لا يتوارثان بعد تمام لعان الزوج عند الشافعية ، أما عند الحنفية ومن يرى رأيهم فيتوارثان قبل أن يفرق القاضى بينهما وإن تلاعنا .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٧

تهويلًا لأمره ، فإنه يشير إلى أن مثله تضيق العبارة عن بيانه ، فكأنه قيل : لولا تفضل الله ورحمته عليكم ، وأنه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين ، ولولا الحكمة فى أقواله وأفعاله وأحكامه — لولا ذلك كله — لكان ما يقصر عنه البيان ، ومن ذلك أنه لو لم يشرع اللعان للقاذف والمقذوف من الزوجين ، لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الافتضاح ولوجب عليها حد الزنى بلعانه لو لم يُشْرع لها اللعان كما يقوله الشافعية ومن يرى رأيهم ، فجعل لعان كل منهما سببًا لدرء العذاب عنه — مع الجزم بأن أحدهما كاذب ، ولأن فى قذف الزوج لزوجته الزانية وشهادته عليها فى مجتمع التقاضى شفاءً لما فى نفسه من جرح عميق بسبب جريمة زوجته وخيانتها ، ولأن لعان الزوجة ضده فيه ستر فى الدنيا ، ولولاه لكان لأهلها وأولادها سمعة شنيعة بين الناس ، فهو يشبه ردّ الشرف الذى سلبه لعانه منها ، وأمر كليهما مفوض لخالقه ، فهو أعلم بالصادق والكاذب منهما ومُجَازٍ له على صدقه أو كذبه ، ولقد شرع الله ما هو أستر للزوجين وذريتهما وأهليهما ، وهو أن يطلق الزوج زوجته إذا عرف زناها ، دون أن يعلم الناس بما حصل منها ، ففى ذلك درءٌ للشناعة والفضيحة التى تحدث من تلاعنهما فى المسجد على المنبر أمام الناس ، كما يقول به الفقهاء — تغليظًا عليهما — والله تعالى أعلم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(جَآءُوا بِالْإِفْكِ) : الإفك أشد الكذب ، وقيل : هو البهتان لاتشعر به حتى يفجأك ـ وقد يستعمل فى الكذب مطلقًا . (عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) : جماعة من بينكم ، وتطلق العُصْبة لغة على الجماعة من عشرة إلى أربعين ـ كما قال صاحب المختار ـ وقد تطلق على أقل منهم .

(تَوَلَّى كِبْرَهُ) : أى تولى معظمه وقام به ، قرئ بكسر الكاف وضمها ، ومعناهما واحد .

(لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) : لولا مِثلُ هَلَّا للتحضيض على فعل أمر وترك ضده ، وسيأتى شرحه .

(شُهَدَآءَ) : الشهداءُ جمع شهيد ؛ أى : شاهد .

التفسير

١١ ـ (إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...) . الآية .

المراد بالإفك هنا : ما افتراه المنافقون على أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقد نزلت فى شأنه عشر آيات هذه أولاها ، وقد برأ الله فيها عرضها وعرض أهلها ، وصان كرامة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قام بمعظم الإفك رأس المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول ـ عليه

لعنة الله - ، فهو الذى اختلقه ونشره ، حتى دخل فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن مبرئا لها على أكمل وجه ، وروته الأحاديث الصحيحة مبرئة ساحتها ، ونشأت هذه الفرية النكراء عن أمر برىء حدث فى غزوة بنى المصطلق [١] ، فاستغله المنافقون أعداء الإسلام أسوأ استغلال .

وخلاصة القصة مستنبطة من صحاح الأحاديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان كلما خرج فى غزوة أقرع بين نسائه ، وحينما خرج فى غزوة بنى المصطلق سنة ستٍّ أقرع بينهن فخرج سهم عائشة - رضى الله عنها - فخرجت معه ، وكان ذلك بعد ما فُرِض الحجاب ، ولهذا كانت تُحْمَلُ فى هودج وتنزل فيه ، ولما انتهت الغزوة وعاد الرسول ، نزلوا قريباً من المدينة ، وأثناء الليل ، أمر الرسول بالرحيل فنزلت لتقضى حاجتها بعيداً عن مكان نزول الجيش ، ثم عادت إلى رَحْلِها وفوجئت بأن عقدها قد انقطع - وكان من جَزْع ظَفَار [٢] فعادت لتبحث عنه فتأخرت بعض الوقت ، وجاء الذين يحملون هودجها فرفعوه على بعيرها ظانين أنها فيه ، لأن النساء كُنَّ خفاف الجسم لقلة الغذاء فى صدر الإسلام ، كما أنها كانت حديثة السن ، فلم يستنكر القوم خفة الهَودج حين رفعوه ، ولما عادت بعقدها وجدت الجيش قد رحل فبقيت حيث كانت تنزل ونامت ، لعلهم يتفقدونها فلا يجدونها فيرجعون إليها لترحيلها ، وكان صفوان بن المعطل السلمى وراء الجيش ، ليجمع ما نسيه المجاهدون ، فرأى سواد إنسان نائم فلما رآها عرفها لأنه كان يراها قبل الحجاب ، فاسترجع [٣] فغطت وجهها عنه ، وقالت : والله ما سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، وداس على يدى الناقة حتى رَكِبَتْهَا ، وانطلق يقود الراحلة حتى أدرك الجيش ، فكان ذلك مثاراً لإفك عنهما افتراه وتولى إذاعته عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين .

---

(١) ويقال لها أيضا غزوة المريسيع : قاله القرطبى .

(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن قرب صنعاء ، ينسب إليه الجزع بفتح الجيم وكسرها ، وهو خرز فيه سواد وبياض تشبه به الأعين .

(٣) أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أدرك المرض السيدة عائشة ، فلزمت الفراش شهرا ، وهى لا تدرى بما يتردد بين الناس من أصداء ما افتراه عبد الله بن أُبى بن سلول ، وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يسأل عن حالها سؤالا مجملا بقوله : (كيف تيكم؟) وينصرف دون أن ترى منه اللطف الذى كانت تعتاده فى مرضها ، وحين خرجت من مرضها إلى طور النقاهة منه ، عادتها أُم مسطح بنت خالة أبى بكر ، ثم قالت : تَعِسَ مِسْطح ، فقالت لها السيدة عائشة : بئس ما قُلتِ ، أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ قالت : أو لم تسمعى ما قال : فقالت عائشة : وما قال ؟ فأخبرتها بما أذاعه أهل الإفك عنها ، فازدادت مرضا ، فلما دخل عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استأذنته فى أن تذهب إلى بيت أبيها -وكانت تريد أن تعرف القصة من والديها- فأذن لها الرسول ، فلما ذهبت إليه سألت أُمها عما حدثتها به أُم مسطح ، فقالت : يا بُنَيَّةُ هوِّنى عليك ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها ، قالت عائشة : سبحان الله ؛ أوَقَدْ تحدث الناس بهذا ، فبكت ليلتها وفارقها النوم حتى أصبحت وهى لا يَرْقأُ لها دمْعٌ ، وقد استدعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أسامة بن زيد وعليا -رضى الله عنهما- ليستشيرهما ، وبريرة جاريتها ليسمع شهادتها بشأنها ، وخرج من حديثهم معه بما أراح نفسه وطمأنه على أهله ، فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى المسجد على المنبر وقال : يا معشر المسلمين من يَعْذِرنى[1] من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فو الله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى سيد الأوس فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من الخزرج أَمَرْتنا ففعلنا أمرك ، فثار نقاش بين الخزرج والأوس ، بسبب تدخل سعد بن معاذ فى أمرهم ، وحسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السيدة عائشة قد عادت إلى بيتها بأمر أبيها ، فظلت يومها هذا تبكى وكان معها أبواها ، وكانا يظنان أن البكاء سيغلق كبدها - كما روت عنهما - ثم دخل عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وجلس معهم ، ولم يسبق له أن جلس عندها منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنها بشىء ، فسألها عما يذيعه المفترون عليها ، ثم أجابت

---

(١) أى : من يقوم بعذرى إذا أردت مكافأته على سوء فريته .

بعد أن بَحَثَتْ عن آية من القرآن تجيبه بها ، وكانت يومئذ لا تحفظ منه كثيراً - أجابت بقولها : والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم اضطجعت على فراشها ، وهى تعلم أنها بريئة وأن الله سيظهر براءتها ولكنها - كما قالت - ما كانت تظن أن يُنْزِل فى شأنها وحياً يتلى وأن يصل أمر تبرئتها عند الله إلى مثل ذلك ، وكل ما كانت تأمله أن يُرِىَ اللهُ رسوله فى منامه رؤيا يبرئها الله فيها ، وبينما كانوا جميعا فى مجلسهم هذا إذ أوحى الله إلى نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من الشدة عند نزول الوحى حتى كان ينزل العرق منه مثل الجُمان - أى اللؤلؤ - فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى أُنزل عليه ، فلما سرِّى عن رسول الله وهو يضحك ، قال لعائشة : أبشرى يا عائشة ، أما اللهُ فقد برأك ، فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله - عز وجل - هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل سبحانه « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإِفْكِ . . . . . » عشر آيات فى براءتها .

وهذا الافتراءُ الذى حدث فى حق عائشة - رضوان الله عليها - حدث مثله للسيدة مريم ، وكان من أقرب الناس إليها وهم أهلها ، وكما برأ الله مريم على لسان عيسى ، برأ السيدة عائشة بوحى يقرؤه الناس نزل به الروح الأمين على خاتم المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

والعُصبة : الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين ، وقد تطلق على ما دون ذلك كما تقدم فى المفردات ، وقد ذكرت السيدة عائشة منهم : عبدالله بن أُبىّ بن سلول ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن إثاثة ، وحسان بن ثابت ، وكان عبد الله بن أُبىٍّ رأس الحية ومثير الفتنة ومخترعها - عليه لعنة الله - وقد اعتذر حسان عما نسب إليه فى شأنها بقصيدة جاء فيها :

حَصَانٌ رَزَان ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غَرْثَى من لحوم الغوافل [1]

حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبىٍّ الهدى ذى المكرمات الفواضل

عقيلةُ حىٍّ من لؤى بن غالب ... كرامِ المساعى مَجْدُهم غيرُ زائل

مهذبة قد طَيَّب الله خِيْمَها ... وطهرها من كل سوءٍ وباطل

---

(١) الحصان : العفيفة ، والرزان : الوقورة ، ومعنى ما تزن بريبة : أنها لا يصح أن تظن بها ريبة أو توصف بها ، ومعنى الشطر الثانى : أنها تصبح نحيلة الجسم من غيبة من يأكلون لحوم المحصنات الغافلات .

والمعنى الإجمالى : إن الذين اختلقوا البهتان فى حق عائشة أُم المؤمنين وأذاعوه هم جماعة وشرذمة ينتسبون إليكم بأُخوَّة الإسلام فكيف رضوا بإذاعته ؟ لا تظنوا هذا الافتراء شرًّا لكم بل هو خير عظيم لكم ، لنيلكم الثواب الجزيل بالصبر عليه ، وظهور كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربكم ، بإنزال ما فيه تعظيم شأْنكم ، وتشديد الوعيد لمن تكلم بما أَحْزَنكم، كما قال سبحانه :

(لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أَى : لكل امرىءٍ من الذين جاءُوا بالإفك جزاءَ ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه سواءٌ أَكان ذلك اختلاقًا ورضًا أَم تَرْديدًا وإذاعة ، والذى تحمل معظمه فقام بأَكبر حظ من إعلانه ، له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة .

وكان أَول من اختلقه وأَذاعه عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، فكان يجمع الناس ويذكر لهم ما يذكر من الإفك ، لإمعانه فى عداوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد كافأَه الله فى الدنيا بتكذيبه وإعلان نفاقه وإقامة حد القذف عليه كما أَخرجه الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، وأَخرجه الطبرانى أَيضًا عن ابن عباس ، كما أَقام حد القذف على مسطح وحسان وحمنة ، أَخرجه البزار وابن مردويه بسند حسن عن أَبى هريرة .

ولما بلغ صفوانَ اشتراكُ حسان فى الإفك عنه وعن أُم المؤمنين ، جاءَ فضربه بالسيف ضربة على رأْسه وقال :

تَلَقَّ ذبابَ السيف عنى فإننى غلامٌ إذا هوجيت ليس بشاعر
ولكننى أَحمى حماى وأَتَّقى من الباهت الرأْى البرىءَ الظواهر

وقد حال دون قتل صفوان لحسان ثابت بن قيس بن شماس ، فقد وثب على صفوان ومنعه من الإجهاز عليه ، وكان صفوان بن المعطل المذكور ، صاحب ناقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة ، وروى عنه أَنه قال : والله ما كشفت كَنَفَ أُنثى قط ، يريد : ما كشفها بزنى ، وقُتِل شهيدًا – رضى الله عنه – فى غزوة

أرمينية سنة تسع عشرة فى زمان عمر، وقيل : ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين فى زمان معاوية[١]

١٢ - (لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) :

والمعنى : هلَّا حين سمعتم أيها المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك ممن أذاعوه ، ظننتم بأهل ملتكم : عائشة وصفوان خيرًا وطهرا ، وقلتم بلا تردد : هذا افتراءٌ واضح مكشوف لا نرضاه لمن هم كأنفسنا ، ولا نوافق على نسبته إليهم ، وقلتم أيضًا فى شأن المفترين الخائضين على سبيل التوبيخ :

١٣ - (لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : هلَّا جاء أصحاب الإفك بأربعة شهداء عدول يشهدون على ما زعموه فى شأن عائشة ، فحيث لم يأتوا بالشهداء ، فهم عند الله وفى حكمه كاذبون ، فكيف تصدقونهم وهم مخالفون لشريعة الله ومنافقون .

ويجوز أن تكون الآية ابتداء كلام من الله تقريرًا لكون ذلك إفكًا ، وليس حكاية لما ينبغى أن يقوله السامعون .

---

(١) انظره فى المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تفضله بالمصابرة والعفو عن التائبين . (لَمَسَّكُمْ) : لأَصابكم . (فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ) : بسبب ما خضتم فيه . (تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) : أى تطلبون بأَلسنتكم ممَّن يحكى هذا الإفك أن يلقيه إليكم ويعرفكم ما قيل فيه . (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) : وتظنونه أَمرًا خفيفًا لاعقوبة عليه . (وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيم) : كبير الإثم .

(مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهٰذَا) : ما يصح وما يليق بنا ونحن مؤمنون أن نتكلم بهذا . (سُبْحَانَكَ) : هذا تنزيه مشوب بالتعجب ، وسيأْتى بيانه . (بُهْتَان عَظِيمٌ) : افتراءٌ عظيم يُحيِّر سامعه . (يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) : ينصحكم لئلا ترجعوا إلى مثله مدة الحياة .

التفسير

١٤ـ (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، ورحمته بكم ، لأصابكم عذاب عظيم فيما خضتم فيه من الإفك فى شأن عائشة ، أما رحمته فى الدنيا فقد تمثلت فى إمهالكم حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتوبوا إلى ربكم من ذنبكم ، وتعرفوا حرمة بيت نبيكم ، وأما رحمته فى الآخرة فبالعفو عمن تاب منكم ، وغفران ما اقترفته ألسنتهم ، وكل ذلك من فضل الله عليكم .

ولا ينال هذا الفضل والرحمة من الخائضين سوى التائبين من المؤمنين كمسطح بن إثاثة وحمنة بنت جحش ، وحسان بن ثابت ، أما من بَقِيَ مغموراً فى نفاقه كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فلا نصيب لهم منهما ، ولا قيمة لتوبتهم الظاهرية إن تابوا .

١٥ - (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا فضل الله ورحمته لمسكم عذاب عظيم حين تتلقون هذا الإفك من ناقليه ، بعد طلبكم بألسنتكم سماعه وتروون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وإنما جاءكم عن طريق السماع عن الآفكين ، وتحسبون ترويج الكذب على عرض ابنة الصديق وزوج الرسول أمراً خفيفاً سهل العاقبة ، والحال أنه عند الله أمر عظيم فى إثمه وسوء عاقبته ، فالقدح فى الأعراض شين عظيم ، وإثم كبير ، فكيف به فى عرض أم المؤمنين ، وزوج خاتم المرسلين .

جاء فى الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض » وفى رواية : « لا يُلْقِى لها بالاً » .

ويصح أن يكون المعنى : إذ يتلقاه بعضكم بألسنة بعض آخر منكم ، وتروون بأفواهكم عنهم ما ليس لكم بصحته علم ، وكلا المعنيين جيد ، وفسره مجاهد وابن جرير - كما نقله ابن كثير - بأن يرويه بعضهم عن بعض ، يقول هذا : سمعت كذا من فلان ، ويقول آخر : قال فلان كذا ، ويقول ثالث : ذكر بعضهم كذا - انتهى بتصرف ، والمعانى متقاربة وإن كان ما قلناه أولاً وثانياً أقرب إلى النص الكريم مما نقله ابن كثير عن ابن جبير ومجاهد .

١٦ - (وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن أدب الله الخائضين قبل هذه الآية بأن يظنوا خيرًا بمن تجمعهم بهم أخوة الإيمان حين يسمعون عنهم قالة السوء ، جاءت هذه الآية بلون آخر من التأديب .

والمعنى : هلَّا حين سمعتم ما لا يليق فى شأن الخِيرَة قلتم - مع الظن بهم خيرًا - : لا ينبغى لنا ولا يصح أن نتكلم بهذا عن الأطهار البررة ، بدلًا من ترديدكم له بالرواية عن مخترعيه ، هلَّا قلتم متعجبين ومستكبرين لما يقولون : « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وكذب مُحَيِّرٌ خطيرٌ لا يصح أن يقال فى عرض كرام المؤمنين .

وقد كان على هذا الخلق العالى الذى دعا إليه القرآن - كان عليه - أصحاب القلوب الصافية ، والعقول الوضيئة ، والحس المرهف ، فعن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فى أمر عائشة - رضى الله عنها - قال : «سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وعن سعيد بن المسيب أنه قال : كان رجلان من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا سمعا شيئًا من ذلك قالا ما ذكر ، وهما أسامة بن زيد بن حارثة ، وأبو أيوب الأنصارى - رضى الله عنهما - ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن امرأة أبى أيوب الأنصارى قالت له : يا أبا أيوب ألا تسمع ما تَحَدَّثَ به الناس ؟ فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، ومثل ذلك قال غيرهم وحق لهم أن يقولوا ذلك ، فإنه لا يجوز عقلًا أن يختار الله لرسوله امرأة فاجرة ، فإن ذلك ينفر عن اتباعه ، ويخل بحكمة البعثة - هكذا قال الإمام الرازى عليه رحمة الله

١٧ - (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

يذكركم الله ويحذركم من أن تعودوا طول حياتكم لمثل هذا الإفك فى عائشة أو سائر أزواجه - صلى الله عليه وسلم - لسوء عاقبته ، وعظيم عقوبته ، إن كنتم مؤمنين بالله فامتثلوا تحذيره واعملوا بنصيحته ، لتأمنوا عذابه وسوءَ حسابه ، ويفهم من الآية الكريمة أن مَنْ سَبَّ عائشة بعد هذا التحذير لا يكون من المؤمنين ، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك ، فقد نقل القرطبى عنه أنه يقول بكفره ووجوب قتله ، ويعلل ابن العربى ذلك بأنَّ الله برأها فكل من سبها بما بَرَّأَها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كَذَّبَ اللهَ فهو كافر يُقْتَلُ لِرِدتِه ، تلك هى خلاصة ما ذكره القرطبى فى ذلك .

١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

وينزل الله لكم آياته مُبَيِّنةً واضحة الدلالة على الأحكام الشرعية ، والأخلاق الكريمة والآداب الجديرة بخير أمة أخرجت للناس ، والله مُحيطٌ علمه بأحوال مخلوقاته وما ينبغى لهم من شرائع ، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه ، فالتزموا ما بينه لكم من شرائعه وآدابه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أَن تَشِيعَ[1] الْفَاحِشَةُ) : أن تنتشر المقالة المفرطة فى القبح .

(رَءُوفٌ) الرأفة : شدة الرحمة .

التفسير

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

فى هذه الآية تأديب من الله تعالى لمن يحبون القدح فى أعراض الأعفاء من المؤمنين والمؤمنات .

ومعنى الآية : إن الذين يريدون ويختارون أن تنتشر تهمة الزنى فى عرض المحصنين والمحصنات[2] من الذين آمنوا ويقومون بنشرها لهم عذاب أليم على إذاعتها فى الدنيا والآخرة ، لشدة قبح هذه الفرية فى حق من افتريت عليه ، أما عذابهم فى الدنيا فبحد القذف ، وأما عذابهم فى الآخرة فبنار جهنم - إن لم يقم الحد عليهم فى الدنيا ، أو أقيم عليهم وكانوا

(١) يقال : شاع الشىء شيوعا وشيعاً وشيوعة ، أى : ظهر وانتشر .

(٢) المراد بالإحصان هنا : العفة عن الزنى ، فقذف صاحبه هو الذى يوجب الحد سواء كان المقذوف رجلا أو امرأة .

منافقين أو كافرين – فإن الحدود لا تكون جوابر ولا تحمى من النار إلَّا عصاة المؤمنين ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

وهذه الآية قاعدة عامة يراد بها صيانة الأعراض عمومًا ، وإن نزلت بشأن قصة عائشة وصفوان التى افتراها رأس المنافقين ابن سلول .

وقد جاء فى حُرْمة ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُعَيِّروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته حتى يفضحه » أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان ، وجاء فى حديث لأبى الدرداء أنه – صلى الله عليه وسلم – قال : « أيُّما رجلٍ شدَّ عضد امرئٍ من الناس فى خصومة لا علم له بها ، فهو فى سخط الله حتى ينزع عنها ، وأيُّما رجلٍ قال بشَفَاعَته دُونَ حَدٍّ من حدود الله أن يُقَام ، فقد عاند الله حقًّا وأقدم على سُخْطِه ، وعليه لعنة الله إلى يوم القيامة ، وأيُّما رجلٍ أشاع على مسلم كلمة وهو منها برئ يَرَى أن يَشِينَه فى الدنيا كان حقًّا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار ، ثم تلا مصداقًا لذلك : « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا . . . » الآية وقد عرفت من تفسيرنا للآية أن المراد من حُبِّ إشاعة الفاحشة ، أن يكون هذا الحب مقرونًا بإذاعتها فعلا ، حتى يكون بذلك قاذفًا فيستوجب حد القذف الذى جعله الله عذابه فى الدنيا ، أما إن أحب إذاعتها ولم يشترك فى نشرها فلا حد عليه ، ولكن الله يعاقبه فى الدنيا بمقتضى وعيده ، كأن يصيبه بنوعٍ من البلاء ، أو يبتليه بما تمناه لغيره – انتقامًا منه لفساد قلبه ورغبته فى الفتنة ، وكما يحرم التشنيع على المؤمنين والمؤمنات ، يحرم قذف غيرهم وإشاعة الفاحشة عنهم فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا (١) .

٢٠ – (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله ورحمته عليكم أيها الآفكون وأنه تعالى دائم الرأفة والرحمة لعباده ، لمسكم فيما أذعتموه من الإفك على زوج رسول الله المحصنة البريئة – لمسكم فى ذلك عذاب عظيم لا يقادر قدره ، ولكنه تعالى أمهلكم بموجب رأفته ورحمته ليميز الخبيث من الطيب ، ثم أنزل براءتها مما نسب إليها ، فتاب من استيقظ ضميره ، وعرف حق الله ورسوله ، فتاب الله عليه ، وأقام الحد على من ثبت عليه التشهير بذلك فَطَهر منهم من كان من المؤمنين ، وبَقِيَ فى رجسه وسوء عاقبته من كان من المنافقين .

---

(١) ولكن لا حد على قاذفه من المسلمين كما قاله الجمهور بل يعزر ، انظر تفسير الآية الرابعة من هذه السورة فى القرطبى – ص ١٧٤ – المسألة السادسة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٨٠٩٣ س ١٩٨٣ - ٤٠٠٥٠٠


Bibliotheca Alexandrina
03999095